إِقَالَةُ الْقَاعِدَةِ النَّحْوِيَّةُ بِإِقَامَةِ الْإِيقَاعِ فِي النَّظْمِ الْقُرْآنِيِّ الْحَكِيمِ

إعـداد

دكتور

إِبْرَاهِيم مُحَمَّد مُحَمَّد الْعَرِينِيّ

الأستَاذُ المُسَاعِدُ بِقِسْمِ النَّحْوِ وَالصَّرْفِ وَالْعَرُوضِ

كُلِّيَّةُ دَارِ الْعُلُومِ - جَامِعَةُ الْقَاهِرَةِ – جمهورية مصر العربية

١٤٤٤ هـ - ٢٠٢٣م

ض

إقالة القاعدة النحوية بإقامة الإيقاع في النظم القرآني الحكيم

إبراهيم محمد محمد العريني
قسم النحو والصرف والعروض، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، مصر.
البريد الإلكتروني:
dribraheemareeny@gmail.com

ملخص البحث

لا جرم أن الإيقاع مرتبط بالطبيعة والروح، وهو مطلب رئيس من مطالب هذه اللغة الشريفة؛ ومن ثمَّ فإن هذا المطلب مقدَّمٌ على القاعدة النحوية في النظم القرآني الكريم، وذلك جانبٌ مهمٌّ من جوانب إعجازه، لأنه نزل على مقتضى المسلك العربي متحدِّيًا قومًا لا بضاعة لهم سوى الوزن والإيقاع والبيان؛ فكان لنظم القرآن وحسن سَبكه إعجازٌ يفوت قدرة البشر، هو غير الإعجاز الذي لِجُمله وتراكيبه وفصَاحةِ ألفاظه. وهذا البحث يُعَدُّ من أبكار الأفكار؛ لأنه يهدف إلى بيان أنه يمكن أن يُضحَّى بالقاعدة النحوية المطردة في سبيل الحفاظ على العنصر الموسيقي المطَّرِد، وكان المنهج هو الاستقراء شبه التام، ثم الانتقاء لما يُدلِّل على الفكرة، ويبيِّنُها. وقد توصل البحث إلى ما يأتي: أَوَّلًا: الْإِيقَاعُ شَيءٌ فِطْرِيٌّ لَدَى الْكَائِنَاتِ كُلِّهَا، وَلَهُ وَظِيفَةٌ إِيحَائِيَّةٌ مُهِمَّةٌ فِي نَقْلِ أَحَاسِيسِ مُبْدِعِ النَّصِّ. ثَانِيًا: حِرْصُ النَّظْمِ الْقُرْآنِيِّ الْحَكِيمِ عَلَى إِقَامَةِ اللَّازِمَةِ الْمُوسِيقِيَّةِ بِسَلْبِ الْقَاعِدَةِ النَّحْوِيَّةِ هُوَ جَانِبٌ مُهِمٌّ مِنْ جَوَانِبِ إِعْجَازِهِ الَّذِي يُغَايِرُ إِعْجَازَ جُمَلِهِ وَتَرَاكِيبِهِ وَفَصَاحَةِ أَلْفَاظِهِ. ثَالِثًا: إِقَامَةُ الْإِيقَاعِ مَطْلَبٌ مُهِمٌّ جِدًّا مِنْ مَطَالِبِ النَّظْمِ الْقُرْآنِي الْحَكِيمِ؛ مِنْ أَجْلِ تَمْكِينِ الْمَعْنَى، وَتَحْسِينِ الْمَبْنَى، وَتَقْوِيَةِ الدَّلَالَةِ، وَتَغْذِيَةِ الْوِجْدَانِ. رَابِعًا: لِلنَّظْمِ

الْقُرْآنِيِّ الْحَكِيمِ طَرَائِقُ مُتَعَدِّدَةٌ مِنْ أَجْلِ إِقَامَةِ الْإِيقَاعِ، مِنْهَا سَلْبُ الْقَاعِدَةِ النَّحْوِيَّةِ؛ بِحَذْفِ الْيَاءِ مِنَ الِاسْمِ الْمَنْقُوصِ الْمُعَرَّفِ بِأَلْ، كَمَا فِي [الْوَادِ- الْمُتَعَالِ]، وَبِتَذْكِيرِ الْمُؤَنَّثِ، كَمَا فِي [حَسِيبًا]، وَبِجَمْعِ مَا هُوَ مُفْرَدٌ، كَمَا فِي [إِلْيَاسِينَ]، وَبِالْإِتْيَانِ بِلُغَةٍ أُخْرَىٰ لِلْكَلِمَةِ، كَمَا فِي [سِينِينَ]. خَامِسًا: تَرْكُ الْوَقْفِ عَلَىٰ الْفَوَاصِلِ إِخْلَالٌ بِحَقِّ الْمَقْرُوءِ مِنَ الْجَانِبِ الإِيقَاعِيِّ.

الكلمات المفتاحية: إِقَالَةُ الْقَاعِدَةِ- القاعدة النَّحْوِيَّةِ- إِقَامَةِ الْإِيقَاعِ- الْإِيقَاعِ فِي النَّظْمِ- النَّظْمِ الْقُرْآنِيِّ الْحَكِيمِ.

❁❁❁❁❁

Dismissing the grammatical rule by establishing rhythm in the wise Quranic systems

Ibrahim Mohammed Mohammed Al-Arini

Department of Grammar، Morphology and Propositions، Faculty of Dar Al Uloom، Cairo University، Egypt.

Email: dribraheemareeny@gmail.com

Abstract:

There is no doubt that rhythm is linked to nature and the soul، and it is a major requirement of this honorable language. Hence، this requirement is prioritized on the grammatical rule in the Noble Qur'anic systems، and that is an important aspect of its miraculousness، because it came down on the requirements of the Arab path، challenging a people who have no merchandise except for weight، rhythm and statement; The system of the Qur'an and its perfect casting had a miraculousness that evaded the ability of human beings، other than the miraculousness of its sentences، structures and eloquence. This research is considered one of the first ideas. Because it aims to show that the steady grammatical base can be sacrificed in order to preserve the steady musical element، and the method was almost complete induction، then selection for what indicates and clarifies the idea. found the following: A،L،A: Rhythm is innate in all beings، and it has an important suggestive function in conveying the feelings of the creator of the text. Second: The keenness of the wise Qur'anic system to establish the musical refrain by depriving the grammatical rule is an important aspect of its success. Which contrasts with the miraculousness of his sentences and the eloquence of his words. Third: Establishing rhythm is a very important requirement of the wise Quranic system.

In order to empower the meaning، improve the structure، strengthen the connotation، and nourish the conscience. Fourth: The wise Qur'anic system has multiple methods for establishing rhythm، including robbing the grammatical base. Fifth: Leaving the pause on the commas is a violation of the right of the recited from the rhythmic side.

Keywords: Dismissing the rule- Grammatical rule- Establishing rhythm - Rhythm in systems - The wise Quranic system.

تقديم

إشكالية علاقة الإيقاع بالنظم القرآني:

لا جرم أن الإيقاع والموسيقىٰ مطلب رئيس من مطالب هذه اللغة الشريفة؛ إذ كان العرب يُقَدِّمون الموسيقىٰ والإيقاع علىٰ القاعدة النحوية شريطة أن يُؤمَنَ اللبسُ، ويُؤَدَّىٰ المعنىٰ باقتدار، وإذا كان القرآن الكريم " هو أبلغ نصوص العربية، بل هو معجزة المعجزات، ومفخرة العرب واللغة العربية"(١)، فإن اللّه- تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ!- أراد أن يكون كتابه مشفوعا بسائر عناصر التأثير في قلب السامع وعقله؛ فجعل الجرس الموسيقي من أهَمِّ عوامل هذا التأثير وأقوىٰ وسائله؛ ومن ثَمَّ فإن هذا المطلب الإيقاعي مقدَّمٌ - أيضًا- علىٰ القاعدة النحوية فيه. والنص الشعري كذلك ليس من ذلك ببعيد، فإذا كانت الغاية الموسيقية تفوق المطلب النحوي شريطةَ أن يُؤمَنَ اللبسُ، فإنه لن يعيب " ناموس الإيقاع أن تختلجه حركاتُ تطورٍ، مادام الاستعمال الشعري متحركا ناميا، فقيمة الإيقاع تُنْبِئُ عن رحابة القانون الذي بإمكانه أن يحويَ أيَّ استعمالٍ جاء متفرِّعًا عن أصلٍ يجرىٰ فيه مَجْرَىٰ الدَّمِ في الشريان "(٢).

هذا، وإن الضرائر الشعرية والرخص العروضية ما هي إلا صورة من النتوءات التي لا تهدر من شعرية النص؛ لأنَّ " السياق الإيقاعي الذي قَبِلَ المخالفاتِ في البنية والإعراب كفيلٌ بأن يُذيب هذه الفوارقَ اليسيرةَ من الناحية الإنشادية"(٣)؛ إذ

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن-ج٢/ ص٣٠٨.

(٢) القافية تاج الإيقاع الشعري- ص١٣٦.

(٣) القافية تاج الإيقاع الشعري السابق- ص١٢٧.

إن السياق اللغوي الإنشادي له أن يصوِّرَ ذلك طالما " أنَّ سلامة الإيقاع غايةٌ أُولَىٰ تعلو سلامةَ بعض القوانين اللغوية"(١).

إن حرصَ النَّظْمِ الْقُرْآنِيِّ الْحَكِيمِ علىٰ إقامة اللازمة الموسيقية ولو بسلب القاعدة لهو جانبٌ مهمٌّ من جوانب إعجازه، لا سيما أنه تفسير لا تكلُّفَ فيه، ولا تعسُّفَ، ولا يأباه النَّظْمُ الْقُرْآنِيُّ الْحَكِيمُ؛ إذ لم يأت فيه ما يوجب مخالفتَه، ولم يأت لدي مفسري القرآن الكريم ومعربيه ما يقتضي مناقضتَه، كما يتضح ذلك من جزئيات هذا البحث.

لا غَرْوَ؛ فإن هذا القرآن الكريم بنظمه المعجز قد نزل علىٰ مقتضىٰ المسلك العربي متحدِّيًا قومًا لا بضاعة لهم سوىٰ الوزن والإيقاع والبيان، وإن " من جملة وجوه الإعجاز أمورًا لا تظهر خصائصها إلا بالنظر إلىٰ كلامٍ مستوفًىٰ في غرض من الأغراض .. **فلا جرم كان لنظم القرآن وحسن سَبكه إعجازٌ يفوت قدرة البشر، هو غير الإعجاز الذي لجُمله وتراكيبه وفصَاحة ألفاظه**"(٢).

إنَّ الموسيقىٰ والدلالة والقاعدة جدائلُ مفتولة تُنتِج كلهَا حبلًا متينًا، يُعَدُّ ميثاقا غليظا لمُنْشِئ النص ومبدعه، يتصرَّف فيه بما يناسب تناغمَ مفرداتِ ذلك الحصن الحصين ومكوناتِه؛ ومن ثم فإن هذا البحث **يهدف** إلىٰ بيان أنه يمكن أن يُضحَّىٰ بالقاعدة النحوية المطردة في سبيل الحفاظ علىٰ العنصر الموسيقي المطَّرِد.

مَنْهَجُ الْبَحْثِ:

كان **المنهج** هو الاستقراءَ شبه التام، ثم الانتقاء لما يُدلِّل علىٰ الفكرة، ويبيِّنُها، ولست بمرجحٍ فيما ذهب إليه هذا البحث إلا لأنَّ في المقام ما يقوِّيه، أو لموافقته المعنىٰ العربيَّ، والإعرابيَّ، والبيانيَّ.

---

(١)القافية تاج الإيقاع الشعري – ص١٣٦.

(٢) تفسير التحرير والتنوير–ج١/ ص٣٣٧.

الدِّرَاسَاتُ السَّابِقَةُ:

البحث فيما يخص ذلك في النَّظْمِ الْقُرْآنِي الْحَكِيمِ يُعَدُّ من أبكار الأفكار، وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّهُ – فِي مَبْلَغِ عِلْمِي – لَمْ يُسْبَقْ بِدِرَاسَةٍ خَاصَّةٍ بِهِ.

هَيْكَلُ الْبَحْثِ:

قَدْ تَأَلَّفَ الْبَحْثُ مِنْ مُقَدِّمَةٍ، وَتَمْهِيدٍ، وَمَبْحَثَيْنِ اثْنَيْنِ، وَخَاتِمَةٍ، وَثَبَتٍ بِأَهَمِّ الْمَصَادِرِ وَالْمَرَاجِعِ. وَقَدْ جَاءَ ذَلِكَ مَنْسُوقًا عَلَىٰ النَّحْوِ الآتِي:

الْمُقَدِّمَةُ : تَنَاوَلَتْ أَهَمِّيَّةَ الْمَوْضُوعِ، وَأَسْبَابَ اخْتِيَارِهِ، وَخُطَّتَهُ، وَأَهْدَافَهُ الْمَرْجُوَّةَ، وَمَنْهَجَهُ.

التَّمْهِيدُ: الرُّوحُ وَالْإِيقَاعُ.

الْمَبْحَثُ الأَوَّلُ: الْقُرْآنُ وَالْإِيقَاعُ وَالْمَقَامَاتُ.

الْمَبْحَثُ الثَّانِي: سَلْبُ الْقَاعِدَةِ النَّحْوِيَّةِ بِالْإِيقَاعِ فِي النَّظْمِ الْقُرْآنِي.

الْخَاتِمَةُ : خُتِمَ الْبَحْثُ بِذِكْرِ أَهَمِّ النَّتَائِجِ وَالثِّمَارِ مِنْ خِلالِ مَبَاحِثِهِ، وَالتَّوْصِيَاتِ الَّتِي تَوَصَّلَ إِلَيْهَا.

رَبِّ يَسِّرْ، وَأَعِنْ، وَاخْتِمْ بِخَيْرٍ يَا كَرِيمُ!

تَمْهِيدٌ: الرُّوحُ وَالْإِيقَاعُ

إن الإيقاع شيءٌ فطريٌّ لدىٰ الكائنات كلها، وإن النَّظْمَ الْقُرْآنِيَّ الْحَكِيمَ لا ينفك عنه، كما أن الموسيقىٰ في الشعر جزء أساسٌ منه؛ بحيث يمكن أن أُقَرِّرَ باطمئنان ويقين أنه لا شعرَ بدون موسيقىٰ، والسبب في هذا الارتباط هو أن الشعر يُعبِّر عن الانفعال، والانفعال يرتبط بعواطف الإنسان ومشاعره، والمكان المختص بهذه العواطف في كياننا يبدو أنه مهتزٌّ بطبيعته؛ أي يبدو أنه مموسقٌ؛ ومن ثم فإنا واجدون ذلك الجزءَ المتعلقَ بالعواطف يتحرَّك لأي انفعال مفرح أو مقبض؛ نسمع القرآن؛ فنخشع؛ فنهتز؛ فنتحرك؛ ومنْ أجل ذلك فإن النصَّ المعبِّرَ عن هذا الجزء لا بُدَّ أن يكون موسيقيا.

وإنْ يعجبْ أحدٌ فعجبٌ أمرُ النقادِ القدامىٰ؛ إذ لم ينتبه كثيرٌ منهم إلىٰ الوظيفة الإيحائية المهمة التي يمكن أن تقوم بها الموسيقىٰ في نقل أحاسيس مبدع النص؛ فالشاعر مثلا – في أحايين كثيرة – تتشكل عنده التجربة تشكيلا موسيقيا قبل كل شيء، وهذا دليل علىٰ أن الموسيقىٰ ليست ثوبا للشعر، وإنما هي متغلغلة في أحشائه وكيانه، متسللة عَنوة إلىٰ حشوه وأعاريضه، وإلىٰ أضربه ومصاريعه وقوافيه.

لا جرم أن **الْإِيقَاعَ وَالنَّغَمَ مَطْلَبٌ مِنْ مَطَالِبِ الرُّوحِ**، لم يتنبَّهِ الأسلافُ من النقَّاد إلىٰ ذلك، اللهم إلَّا في إشارة سريعة ويسيرة جدا، قد أوردها الشاعر الناقد أحمد بن عبد ربه الأندلسي، ويبدو أنه كان خَجِلا من إيرادها رغم خطورتها وأهميتها البالغة؛ فنسبها إلىٰ الفلاسفة، فقال: **"** وزعمت الفلاسفة أنَّ النغم فضلٌ بقي من المنطق، لم يقدر اللسان علىٰ استخراجه، **فاستخرجتْه الطبيعة بالألحان على الترجيع، لا على التقطيع، فلما ظهر عشقتْه النَّفْسُ، وحنَّتْ إليه الروحُ"**(١).

---

(١) العقد الفريد- ج٦/ ص٦. وَيُنْظَرُ النص نفسه في: المستطرف في كل فن مستظرف-ج٢/ ص٣١٦.

هذه الإشارة الدقيقة الخطيرة التي ساقها ابن عبد ربه علىٰ استحياء سرعان ما تبرَّأ – غير متبرِّم– منها، وذلك بنسبته إياها إلىٰ المناطقة أو إلىٰ الفلاسفة. ولعل في إجابة الجُنَيْدِ اتساقا وتوافقا مع إشارة ابن عبد ربه؛ سُئِلَ الجُنَيْدُ " ما بالُ الإنسانِ يكون هادئًا، فإذ سمع السماع اضطرب؟ فقال: إن الله – تعالىٰ! – لمَّا خاطب الذرَّ في الميثاق الأوَّلِ بقوله:[أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ] [الأعراف/ ١٧٢]، استفرغتْ عذوبةُ سماعِ الكلامِ الأرواحَ، فلما سمِعُوا السماعَ حرَّكَهُمْ ذكْرُ ذلك"(١)، ومن ثَمَّ فإن صورة المسموع وحقيقتَه ومرتبتَه أن يكون بالله ولله، وعن الله، ما يحبه الله، ويرضاه. ولعل من أجل ما سلف قد أوضح الشيخ محمد رشيد رضا أن " الهزة والحركة المخصوصة والكلمات المعلومة التي تصدر ممن يسمعون القرآن، إذا كان القارئ رخيم الصوت حسن الأداء عارفا بالتطريب علىٰ أصول النغم. والسبب في هذه اللذة والنشوة هو حسن الصوت والنغم"(٢)، ويتضح ذلك بجلاء في المبحث الآتي.

❁❁❁❁❁

(١) الرسالة القشيرية– ص٣٦٨.

(٢) تفسير المنار–ج١/ ص٢٣.

المبحث الأول: القرآن والإيقاع والمقامات

وصلا بما ورد في التمهيد أقول: إن حسن الصوت والتحبير في الأداء والتأويب والترجيع مطلب من مطالب الروح؛ انسجاما مع الكون، واتساقا مع الطبيعة بمكوناتها وإلا فما المعنىٰ من وراء أمرِ اللهِ الجبالَ - وهي جامدة - أن تؤوِّبَ مع نبيِّه المُسَبِّحِ الأوَّابِ داودَ- عليه السلام!:﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [سبأ/ ١٠]، أَوِّبِيْ، ولم يقل: سَبِّحِي، فالتأويب تسبيح خاصٌّ(١)، وهو معنًىٰ زائدٌ عنه في قوله – عزَّ، وجلَّ!:قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ [سورة ص:١٧-١٩].

فتأويب الجبال في قوله- سبحانه!:﴿ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ﴾ تسبيح، بيد أنه بطريقة مخصوصة فيها ترجيع؛ إذ إن " التأويب عند العرب الرجوع ومبيت الرجل في منزله وأهله"(٢)، وكذلك " التأويب سيرُ النهار كلِّه. فكأن المعنىٰ: سبِّحي معه نهارَك كلَّه، كتأويب السائر نهارَه كلَّه"(٣). والتأويب تفعيلٌ، وهو في كلام العرب " علىٰ معنيين، أحدهما: علىٰ التكثير من ﴿ أَوِّبِى﴾؛ فيكون معنىٰ ﴿أَوِّبِى﴾ علىٰ هذا: رَجِّعِيْ مَعَهُ فِي التَّسْبِيحِ.

الثاني: يقال:[أَوَّبَ] إذا سار نهارا؛ فيكون معنىٰ ﴿ أَوِّبِى﴾ علىٰ هذا: سِيرِيْ مَعَهُ"(٤).

---

(١) التأويب " قال أبو ميسرة: هو التسبيح بلسان الحبشة. فتح القدير-ج٤/ ص٣١٥.

(٢) تفسير الطبري-ج٢٢/ ص٦٥.

(٣) غريب القرآن، السجستاني- ص٧٤.

(٤) معاني القرآن، للنحاس-ج٥/ ص٣٩٥، ٣٩٦.

ومِنْ أهْلِ الْعرَبِيَّةِ " منْ كان يذْهَبُ في ذلك بِأنَّ الْمُرادَ ﴿ أَوِّبِي مَعَهُ﴾(١): ارْجعِي معه، منَ الْإِيابِ"(٢). ومن معاني الأَوَّاب " الذي يذنب، ثمّ يتوب، ثمّ يذنب، ثمّ يتوبُ"(٣)، رجوعٌ بعد رجوع. والله أعلم ما أراد.

لا شك أن ذلك الترجيع بالتسبيح فيه شَجًى وَنَوْحٌ وبكاءٌ وترديدٌ مرة بعد مرة ؛ فقد أمر الله- سُبحانَه!- الجبال أنْ " نُوحِيْ معه، والطيرُ تساعدك علىٰ ذلك. فكان إذا نادىٰ بالنياحة أجابتْه الجبالُ بصدَاها، وعكفتِ الطيرُ عليه من فوقه"(٤)، ولا أن تسبيح الجبال الصم أعجب من تسبيح الطير، وأن صدور التسبيح من الحصا الصغار الصم أعجب من صدوره من الجبال؛ لما في الجبال من التجاويف والكهوف، فإنها وما شاكلها تردِّد صدىٰ الأصوات العالية، ومن ثمَّ فقد فاقت معجزةُ الحبيب- صلىٰ الله عليه وسلم!- معجزةَ داود؛ إذ إن الحصا سبَّح في كفِّه- صلىٰ الله عليه وسلم!.

حُكِيَ من آثار صوت داودَ أشياءُ عجيبةٌ، منها أن " **صدى الجبال** الذي يسمعه الناس إنما كان من ذلك اليوم إلىٰ هذه الساعة"(٥).

وفي هذا الترجيع بالتسبيح- أيضًا- رقَّةٌ وحنين؛ أي " رجِّعِيْ الحنين؛ فكانت الجبال تجيبه إذا تلا الزبور"(٦)؛ تَعَبُّدًا به لله- سبحانه!- بغَيْرِ تَمْطيطٍ، ولا تغَنٍّ في

(١) [أُوبِي] بالتخفيف؛ بضمِّ الألفِ، وسكونِ الواوِ؛ من آب يؤوب أوبا وأوبة وإيابا.

(٢) شرح مشكل الآثار-ج٣/ ص٢٠٣.

(٣) الكشف والبيان (تفسير الثعلبي)-ج٦/ ص٩٤.

(٤) الرقة والبكاء، لابن أبي الدنيا- ص٢٤٩.

(٥) الكشف والبيان (تفسير الثعلبي)-ج٨/ ص٧١* تفسير القرطبي-ج١٤/ ص٢٦٦.

(٦) إعراب القرآن، للنحاس- ج٣/ ص٣٣٣.

الْكلَامِ، ولَا عجَلَةٍ. وقد عقد البخاري بابا بعنوان [باب الترجيع] أورد فيه من حديث عبدِ اللّهِ بنِ مُغفَّلٍ قال:" رأيت النبي - صلىٰ الله عليه وسلمّ- يَقرَأُ، وهو علىٰ ناقَتِهِ أو جمَلِهِ، وهِيَ تسِيرُ بهِ، وهو يَقرَأُ سُورةَ الفَتْحِ أو من سُورةِ الفَتْحِ قِراءَةً ليِّنَةً، يَقرَأُ وهو يُرجِّعُ"(١)، وفي رواية:" وهو يرجِّع، ويقول آ "(٢).

وذكره البخاري وقال في صفة الترجيع:" آء آء آء ثلاث مرات"(٣).

هذا الترجيع منه - صلىٰ الله عليه وسلم!- كان اختيارا، لا اضطرارا بسبب هَزِّ الناقة له؛ فإن هذا لو كان لأجل هز الناقة لَمَا كان داخلا تحت الاختيار، فلم يكن عبد الله بن مغفل يحكيه، ويفعله اختيارا ليؤتسىٰ به، وهو يرىٰ هزَّ الراحلة له، حتىٰ ينقطع صوته، ثم يقول: كان يرجع في قراءته؛ فنسب الترجيع إلىٰ فعله، ولو كان من هزِّ الراحلة لم يكن منه فعلٌ يُسمَّىٰ ترجيعا"(٤). ولا غرو في ذلك؛ فقد قال النبيُّ - صلىٰ الله عليه وسلم!- لأبي موسىٰ الأشعري- رضِيَ اللهُ عنهُ!:" لَقَدْ أُوتِيتَ مزمارًا من **مزاميرَ آلِ داودَ**"(٥)؛ تغبيطا له، وفيه دليل الإعجاب بحسن الصوت. ومزاميرُ آل داودَ تسبيحهم، وإِلىٰ داود- عليه السلام!- المُنْتَهىٰ في حُسْنِ الصوت بالقراءة والغاية في طول النَّفَس، فما كان أندىٰ صوتَه حين يقرأ الزبور! كان " إذا قرأ القرآن لم يسمعه شيء إلا حجل كهيئة الرقص"(٦)، وجاوبته الجبال الصم، والطيور البهم. وما صُنِعَتْ " المزامير والبرابط والصنوج إلَّا علىٰ أَصْنَافِ صَوْتِهِ"(٧).

---

(١) صحيح البخاري (الجامع الصحيح المختصر)-ج٤/ ص١٩٢٥.

(٢) أحكام القرآن، لابن العربي-ج٤/ ص٤.

(٣) تفسير القرطبي-ج١/ ص١٦.

(٤) زاد المعاد-ج١/ ص٤٨٣، ٤٨٤.

(٥) صحيح البخاري-ج٤/ ص١٩٢٥.

(٦) مختصر تاريخ دمشق-ج٨/ ص١١٤.

(٧) السابق-ج٨/ ص١١٠.

الزِّيَادَةُ فِي الْخَلْقِ وَالْخَلْقِ:

ثمة ثلاث زيادات في القرآن مبهمة، **أما الأولى** ففي قوله- تعالىٰ!:﴿ * لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونُس/ ٢٦]. ومعنىٰ " الحسنىٰ الجنة، والزيادة النظر إلىٰ الله "(١).

وأما الزيادة الثانية ففي قوله – جَلَّ جَلَالُهُ!:﴿ وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ﴾ [الصَّافَّات/ ١٤٧]، ومقدارها " عِشْرُونَ أَلْفًا "(٢). وأما الزيادة الثالثة ففي قوله- تعالىٰ!:﴿ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ﴾ [فاطر/ ١].

وفيه " ثلاثة تأويلات؛ أحدها: أنه حسن الصوت "(٣).

وقد قُرِئَ قولُه- سبحانه!:﴿ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ﴾ في الشاذِّ:" يَزِيدُ فِي الْحَلْقِ "(٤)؛ بالحاء المهملة، لا بالمعجمة، فحلاوة الصوت في التلاوة والتسبيح والذكر وأثر وقعه وإيقاعه في النَّفْس لَأَمرٌ منَ الأهمية بمكان؛ إذ إن معنىٰ [الفضل] في قوله- تعالىٰ!:﴿ * وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ﴾ [سبأ/ ١٠]، قد ورد " فيه سبعة أقاويل .. السادس: حُسْنُ الصوت "(٥).

إن في انتخاب رسولنا الكريم- عليه الصلاة والتسليم!- بلالًا حين قال لعبد الله بن زيد في قصة الأذان:" ألقِهِ علىٰ بلالٍ؛ فإنه أندىٰ صوتًا منك "(٦)، وفي اختياره أبا

---

(١) الرقائق- ص١٢٧.

(٢) سنن الترمذي-ج٥/ ص٣٦٥.

(٣) النكت والعيون تفسير الماوردي-ج٤/ ص٤٦٢* شعب الإيمان-ج١/ ص١٣٥.

(٤) تفسير ابن كثير-ج٣/ ص٥٤٧.

(٥) النكت والعيون تفسير الماوردي-ج٤/ ص٤٣٥.

(٦) الحاوي الكبير-ج٢/ ص٥٧.

محذورةَ من بعدُ لِصوتِه الأمدِّ الأندَىٰ[١]، دلالةً بينةً علىٰ ما قد سلف أيضا؛ إذ لا يكون أنْدَىٰ إلا إذا أحسن الأداء والتأويب والتفنُّن في اختيار طبقة الصوت، والمكان الذي يُحدثُ صدىٰ الصوت، ينضاف إلىٰ النيَّةِ والفطرة السليمة النقية؛ من أجل أن يَتِمَّ به التأثير والتأثر بتبتُّلٍ مأمول وخشوع مرجوٍّ.

إننا مأمورون شرعا بتزيين أصواتنا في القرآن، وتلاوته بأعذب نغمة، وأمثل طريقة، محاولين تحسين حلوقِنا ما استطعنا إن لم نكن من ذوي الأصوات الحسنة، وأُخْبِرْنا أنه " ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن"[٢]؛ أي يحسن صوته استدعاء لرقة قلبه بذلك، ويلهج " بتلاوته كما يلهج سائر الناس بالغناء والطرب"[٣]، ويجهر به " ويحسن صوته بالقراءة بخضوع وخشوع وتحسين وترقيق"[٤].

فحُسن الصوت حليةٌ وزينةٌ تزيد بزينة المقروء، والصحيح أن هذا القدر من التلحين لا بأس به إن لم يفرط في التمطيط والمد وإشباع الحركات.

حُكْمُ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ بِالْأَلْحَانِ وَالْمَقَامَاتِ:

إن جلالة موقع القرآن من القلوب، والتذاذ السامعين به، واستمالة مواعظه النفوسَ لا يكون إلا مع تحسين الصوت به. هذا وجهه لا الألحان المحدثة المطربة الملهية المصاحبة للأغاني المعاصرة، وبخاصة أن ثمة إشارةً مهمة في كتب التراث تردَّدْت في إيرادها، لكونها خاصةً بالقراءة علىٰ المقامات، أوردها القاسم بن سلَّام الهروي[٣٢٤هـ]، عن ابن جريج قال: قلت لعطاء:" ما تقول في القراءة علىٰ

(١) قد " أَخْرَجَ الدّارِمِيُّ وأبو الشيخ بِإِسْنادٍ مُتّصِلٍ بِأبِي محْذُورَةَ أنَّ رسُولَ اللّهِ أمَرَ بِنحْوِ عشْرِينَ رجُلًا، فأَذَّنُوا، فأَعْجَبَهُ صوْتُ أبي محْذُورَةَ؛ فعَلَّمَهُ الْأذَانَ". نيل الأوطار-ج٢/ ص٢٠.

(٢) مصنف عبد الرزاق-ج٢/ ص٤٨٣.

(٣) حديث إسماعيل بن جعفر- ص١٤٩.

(٤) فيض القدير، للمناوي-ج٥/ ص٤١٦.

الألحان؟ فقال: وما بأسُ ذلك؟ سمعت عبيد بن عمير يقول: كان داود يفعل كذا وكذا لشيء ذكره؛ يريد أن يَبكيَ بذلك، وَيُبَكِّيَ"(١).

لم تكن المقامات [الرَّسْت- النَّهاوَند- البيَّاتي- السِّيكا- العَجَم- الحِجَاز- الصَّبا- الكُرْد](٢) معروفة بهذا الاسم فيما سلف، فهي تسمية حديثة، بيد أن كيفيتها معلومة من زمن يضرب في عمق التاريخ البشري- كما سلف في إشارة ابن عبد ربه- ولما كثُر دراسة ذلك وتلقينه عبر الأجيال استوىٰ علىٰ سوقه في عصرنا الحاليِّ، وسمي بالمقامات، أشار إلىٰ ذلك ابن رشيق بأنه يُقال " للرجل والمرأة في القراءة والغناء: إنه لنديُّ الحلق، حسن الصوت، طويل النَّفَس، مصيبُ اللَّحْن. ويوصف الآخرُ والأخرىٰ بهذه الصفة وبينهما بَونٌ بعيد، يَعرف ذلك أهلُ العلم به عند المعاينة والاستماع، بلا صفة ينتهي إليها، ولا علمٍ يُوقَفُ عليه، وإنَّ كثرةَ المدارسة للشيء لَتُعِينُ علىٰ العلم به"(٣).

وأما القراءة بالألحان فقد قال الشافعي:" في موضع أكرهه. وقال في موضع آخر لا أكرهه. وليست علىٰ قولين وإنما هي علىٰ اختلاف حالين؛ فالذي قال:[أكرهه] أراد إذا جاوز الحد في التطويل وإدغام بعضه في بعض. والذىٰ قال:[لا أكرهه] إذا لم يجاوز الحد"(٤). ومراد الشافعي بالكراهة كَرَاهَةُ تنزيهٍ؛ لأنه عدل به عن لهجة التقويم، فكراهةُ القراءة بالأنغام مستندة إلىٰ أن الغالب علىٰ من راعىٰ الأنغام أن لا يراعيَ الأداءَ، فإن وُجِدَ من يراعي النغمة والحسْن والأداء معا فلا شك في أنه أرجح من غيره. وأما عند أحمد بن حنبل فعن ابن قدامة أنه " اتفق العلماء

(١) فضائل القرآن، للقاسم بن سلَّام- ص١٦٤.

(٢) رموزُها- غير الكرد- مجموعةٌ في جملة [صُنِعَ بِسَحَر].

(٣) العمدة في محاسن الشعر وآدابه-ج١/ ص١١٩.

(٤) المهذب في فقه الإمام الشافعي-ج٢/ ص٣٢٨.

علىٰ أنه تُسْتَحَبُّ قراءة القرآن بالتحزين والترتيل والتحسين"(١). وقال في موضع آخر:" علىٰ كل حال فقد ثبت أن تحسين الصوت بالقرآن وتطريبه مستحبٌّ، غير مكروه ما لم يخرج ذلك إلىٰ تغيير لفظه وزيادة حروفه؛ فقد روي عن عائشة - رضي الله عنها- أنها قالت للنبي - صلىٰ الله عليه وسلم!: أستمع قراءة رجل في المسجد لم أسمع قراءةً أحسنَ من قراءته. فقام النبي- صلىٰ الله عليه وسلم!- فاستمع قراءته، ثم قال:" هذا سالم مولىٰ أبي حذيفة، الحمد لله الذي جعل في أمتي مثل هذا"(٢).

وفي التطريب الذي يخرج إلىٰ تغيير لفظ القرآن وزيادة حروفه قال ابن قدامة:" فأما إن أفرط في المد والتمطيط وإشباع الحركات بحيث يجعل الضمة واوًا، والفتحة ألفا، والكسرة ياءً فَكَرِهَ ذلك، ومن أصحابنا من يحرمه؛ لأنه يغيِّر القرآن، ويُخرج الكلمات عن وضعها، ويجعل الحركات حروفا. وقد روينا عن أبي عبد الله أن رجلا سأله عن ذلك، فقال له: ما اسمك؟ قال: محمد. قال: أيسرك أن يقال لك: يا مو حامد؟ قال: لا. فقال: لا يعجبني أن يتعلم الرجل الألحان إلا أن يكون حَرَمُهُ مثلَ حَرَمِ أبي موسىٰ"(٣). ذلك، وقد " استحسن كثيرٌ من فقهاء الأمصار القراءة بالألحانِ والترجيع، وكرِهه مالك، وهو جائز لقول أبي موسىٰ للنبي- عليه السلام!:[لو علمت أنك تسمع لحبّرته لك تحبيرًا]؛ يريد: لجعلته لك أنواعًا حسانًا، وهو التلحين مأخوذ من الثوب المحبَّر، وهو المخطّط بالألوان"(٤)، بيد أن الألحان التي تشبه ألحان الأغاني مكروهة عند ابن الجوزي؛ لقوله:" وأما الألحان التي يسوقونها مساقَ الأغاني فمكروهة"(٥).

---

(١) المغني، لابن قدامة- ج١٠/ ص١٧٨.

(٢) المغني، لابن قدامة -ج١/ ص٤٦٠.

(٣) السابق - ج١٠/ ص١٧٨.

(٤) أحكام القرآن، لابن العربي-ج٤/ ص٤.

(٥) العلل المتناهية-ج٢/ ص٨٨٨.

فإذا كان القارئ " متحاشيا من الأنغام الموسيقية وألحان أهل الفسق، قارئا علىٰ لحون العرب، محسنا صوته، فلا مجال للطعن فيه والدَّخَلِ ظاهرا وباطنا"(١). والمقصود بلُحُونِ الْعَرَبِ " الْأَصْوَاتُ الطَّيِّبَةُ الَّتِي هِيَ مَدُّ الْمَمْدُودِ، وَقَصْرُ الْمَقْصُورِ، وَتَرْقِيقُ الْمُرَقَّقِ، وَتَفْخِيمُ الْمُفَخَّمِ، وَإِدْغَامُ الْمُدْغَمِ، وَإِظْهَارُ الْمُظْهَرِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ"(٢). وتلكم من نفائس مسائل الفقه ولطائفه.

الأصل في الأصوات هو حناجر الحيوانات. وإنما صُنِعَتْ أو وُضِعَتِ " المزامير علىٰ صورة الحناجر، وهي تشبيه الصنعة بالخلقة. وما من شيء توصل أهل الصناعات بصناعتهم إلىٰ تصويره إلا وله مثال في الخِلْقَةِ التي استأثر الله تعالىٰ باختراعها، منه تعلَّم الصُّنَّاع، وبه قصدوا الاقتداء. فسماع هذه الأصوات يستحيل أن يحرم؛ لكونها طيبة أو موزونة، فلا ذاهبَ إلىٰ تحريم صوت العندليب وسائر الطيور(٣).

وصفوة القول أنه لا بأس بأن نقرأ القرآنَ، ونجوِّدَ قراءته، ونحسنها ما استطعنا وَفْقَ لحُونِ العرَبِ وأصواتها، وليس بلحون أهْلِ العشْق والغناء والهوىٰ، بل يُستحبُّ تزيين القراءة ما لم يُقرن بتحسين الصوت بالقرآن الآلاتُ المطربة بالفم وباليد، وما لم يخرج عن حدِّ القراءة بالتمطيط، فإن أفرط- زاد حرفا أو أخفىٰ حرفا- فهو حرام، كقراءة النصارىٰ أناجيلَهم بترديد الحروف. وقد جعل الله لكل شيء قدرا، ولن " يجعل الله مَنْ شِرْبُهُ ونصيبُه وذوقُه وَوَجْدُهُ من سماع الآيات

---

(١) تفسير روح البيان، لِلْمُرَادِيّ-ج٣/ ص٥١.

(٢) بريقة محمودية-ج٣/ ص٢١٦.

(٣) من الطيور ذات الصوت الحسن الرخيم: العندليبُ، والدِّيكُ، والْبُلْبُلُ (أو النُّغر عن الحجازيِّينَ)، والقُمْري (كنيته أبو زكريا)، والكَرَوَانُ، والْهَزَارُ، والْكَنَاري، والأَنْبَسَةُ، والفاختةُ، وأبُو بَرَاقِشَ.

البينات كَمَنْ نصيبُه وَشِرْبُهُ وذوقُه وَوَجْدُهُ من سماع الغناء والأبيات"[١]. وقد يُتوصل بالألحان الحسان إلىٰ خيري الدنيا والآخرة. والْجَدَنُ أو النغَمة الحسنة نعمةٌ سابغة من نِعَمِ ربِّنا الكريم الواسع - سبحانه!- وهو زيادةٌ في الخلق وَمِنَّةٌ مِنْهُ.

ألفت إلىٰ أن تحسين الصوت بالقرآن وتحبيره والتطريب به كل ذلك وإن كان حسنا إلا إن فوقه ما هو أهم منه وأتم وأولىٰ وأحرىٰ، وهو فهم معانيه، والتفكر فيه، والعمل بمقتضاه. والوقوف عند حدوده، وثمرة خشية الله- تعالىٰ!- من حسن تلاوته. فمن وفقه الله - تعالىٰ!- لا يكتفي بإتقان اللفظ، وإصلاح اللسان، ويترك التدبر في معانيه، والتفكر في غوامضه، والتحري في مقاصده، ومن ذلك حرص النَّظْمِ الْحَكِيمِ علىٰ إقامة الإيقاع ولو علىٰ حساب القاعدة النحوية كما يتجلىٰ في المبحث الآتي.

فاللهم إن كان قد فاتني حلاوة الترتيل، فعسىٰ ألا يفوتني جمال التأويل.

❁❁❁❁❁

(١) مدارج السالكين-ج١/ ص٤٨٨.

المبحث الثاني: سلب القاعدة النحوية بالإيقاع في النظم القرآني الحكيم

لا جرم أن ربط المعنىٰ بالقاعدة وبالموسيقىٰ جانب مهمٌّ في الدرس اللغوي؛ إذ إن للإيقاع والموسيقىٰ دورًا كبيرًا في إقامة المعنىٰ في النسق القرآني الفذِّ والنصِّ الشعري علىٰ سواء، ولا يخفىٰ دور الإعراب في الإبانة عن المعنىٰ، بيد أنه إذا ما تعارض الإيقاع مع القاعدة النحوية كانت التضحية بالقاعدة من أجل إقامة الجانب الموسيقي الذي يستلزمه المقام في النَّظْمِ الْقُرْآنِيِّ الْحَكِيمِ الذي قد بَهَرَنَا بلذاذة نظمه، وجمال لفظه، وتمكُّنِ فواصله، وحسن ارتباط أواخره وأوائله، وتظافر إيجازه وإعجازه؛ ومن ثم أسوقَ هنا عدَّةَ نماذجَ مُنْتَقَاةٍ دالَّةٍ عَلَىٰ مُسْتَوَىٰ تناسُبِ الْفَاصِلَةِ الْقُرْآنِيَّةِ الْكَرِيمَةِ وتشابُهِ أواخرها؛ لِيَسْتَبِينَ مِنْ خِلَالِهَا مدىٰ حرص النَّظْمِ الْقُرْآنِيِّ الْحَكِيمِ علىٰ إقامة الإيقاع، ولو كان ذلك علىٰ حساب القاعدة النحوية.

النموذج الأوَّل: [السُّلْطَانُ]

إن لفظة [السُّلْطَان] في اللغة الشريفة مما يُذكَّرُ ويُؤنَّثُ، بيد أن تأنيثه عند الفصحاء أكثر، وهو في لغة العرب أشهر، تقول العرب: [قضتْ به عليكَ السلطانُ]، و[قد أخذتْ فلانًا السلطانُ]، بيد أنها وردت مذكرة في قوله- سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ!: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ١٤٤﴾ [سورة النساء: ١٤٤]؛ أي: حجة ظاهرة، وبيِّنَةٌ واضحة. والمعنىٰ أنه " يأخذكم إِنْ وَالَيْتُمْ الكفارَ بانتقام منه، وله عليكم في ذلك الحجةُ الواضحة، إِذْ قد بيَّن لكم أحوالَهم، ونَهَاكم عن موالاتِهم "[1]. نجد أن النَّظْمَ الْقُرْآنِيَّ الْحَكِيمَ قد استعمل لفظة [سُلْطَانًا] مذكرة؛

(١) تفسير البحر المحيط-ج٣/ ص٣٩٥.

بتذكير الصفة [مُبِينًا]، فكيف ذُكِّرت صفتُه، فقيل:[مُبِينًا]، ولم يُقَلْ:[مُبِينَةٌ]؟ وما المغزىٰ الدلالي من وراء ذلك؟

ثمة أكثرُ من جواب:

١- مَنْ ذكَّر فقد ذهب به إلىٰ أن معناها [البرهان والاحتجاج].

٢- مَنْ أنّث فقد ذهب به إلىٰ أن معناها [الحجة]. أو هو علىٰ حذف مضاف، والتقدير: ذو السلطان؛ أي: ذو الحجة علىٰ الناس؛ إذ هو مدبِّرُهم، والناظرُ في مصالحهم ومنافعهم.

٣- إنَّما اخْتِيرَ التذكيرُ هنا في الصفة- وإن كان التأنيث أكثر- لأن " الصفة هنا رأسُ فاصلة؛ فلذلك عدلَ إلىٰ التذكير، دون التأنيث"(١).

الجواب الأخير يعني أن العنصر الإيقاعي هنا " هو المرجح للتذكير علىٰ التأنيث"(٢) عند أبي حيان، ومن ثم يكون النَّظْمُ الْقُرْآنِيُّ الْحَكِيمُ قد آثر الإيقاع علىٰ الأكثر والأشهر في القاعدة النحوية، وهو ما أذهب إليه، وأرجحه.

❁❁❁❁❁

(١) اللباب في علوم الكتاب- ج٧/ ص٩٠.

(٢) تفسير البحر المحيط-ج٣/ ص٣٩٥.

النموذج الثاني: [إلْ ياسِينَ]

في تبيان جزاء المحسنين، وقيمة إيمان المؤمنين قال الله – تعالىٰ ذكره!– أمنةً منه لآل ياسين: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [سورة الصافات:١٢٣-١٣٢].

في محاولة إلىٰ النَّأْيِ عن التفسير الإيقاعي لهذا المسلك في النَّظْمِ الْقُرْآنِيِّ الْحَكِيمِ قد دار خلاف بين المفسرين مُتَّكِئِينَ علىٰ مِنْسَأَةٍ من القراءات الواردة في تلكم الآية الكريمة، هذا الخلاف حول [إِلْيَاسِينَ]؛ أهو نبي الله إلياس– عَلَيْهِ السَّلَامُ!– أم أنه [إدريس]، أم [آل ياسين]؛ أي آل محمد صلىٰ الله عليه وسلم!– أم [اَلْ يَاس] بدخول أل التعريف علىٰ [اسم النبيِّ [ياس]؟

أورد الطبري والفخر الرازي في تفسيرَيْهِمَا عدة قراءات للآية المباركة، وقد فسَّرَا معنىٰ كل قراءة عند منْ قرأ بها، ثم رجح كلاهما القراءةَ التي معنا، بأنها الصواب بالاستناد إلىٰ سياق الكلام في السياق العام لسورة الصافات كلها، وذلك علىٰ النحو الآتي:

١– أن عامة قراء المدينة نافع وابن عامر ويعبوب يقرؤون:[سَلَامٌ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ]؛ بقطع [آلِ] من [يَاسِينَ]، علىٰ إضافة لفظ [آل] إلىٰ لفظ [يَاسِينَ]، فكان بعضهم يتأوَّلُ ذلك بوجوه:

أ– أنه إلياس بن ياسين، فكان إلياس آل ياسين، وهو الأقرب والأليق بسياق الكلام(١).

(١) التفسير الكبير–ج٢٦/ ص١٤١.

ب- سلامٌ علىٰ آلِ مُحَمَّدٍ - صلىٰ الله عليه وسلم!.

ج- أن [ياسين] اسم القرآن، كأنه قيل: سلام الله علىٰ مَنْ آمن بكتاب الله الذي هو ياسين.

٢- أنَّ بعض القراء كان يقرأ:[وَإِنَّ الْيَاسَ]؛ بترك الهمز في [إِلْيَاسَ]، ويجعل الألف واللام داخلتين علىٰ [يَاس] للتعريف، ويقول: إنما كان اسمه [يَاسَ]، أدخلت عليه ألف ولام؛ ثم يقرأ علىٰ ذلك:[سَلَامٌ عَلَىٰ الْيَاسِينَ] (١)، وذلك كقوله- تعالىٰ!:﴿ وَالْيَسَعَ ﴾[سورة الأنعام/ ٨٦].

٣- يُروىٰ عن ابن مسعود أنه قرأ :[وَإِنَّ إِدْرِيسَ]، وقال: إن إلياس هو إدريس. وهذا قول عكرمة(٢).

٤- الصواب من القراءة في ذلك عند الطبري قراءةُ منْ قرأ [سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ]؛ بكسر ألفها علىٰ مثال [إِدْرَاسِينَ]؛ لأن الله - تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ!- إنما أخبر عن كل موضع ذَكَرَ فيه نبيًّا من أنبيائه - صلوات الله عليهم!- في هذه السورة بأنَّ عليه سلامًا، لا علىٰ آله. فكذلك السلامُ في هذا الموضع ينبغي أن يكون علىٰ [إلياسَ]، كسلامه علىٰ غيره من أنبيائه، لا علىٰ آله علىٰ نحو ما بَيَّنَّا من معنَىٰ ذلك(٣). وقد افترض الطبري افتراضا مفادُه أنه " إنْ ظنَّ ظانٌّ أنَّ إلياسين غيرُ إلياسَ، فإن فيما حكينا منِ احتجاج منِ احتجَّ بأنَّ [إِلْيَاسِينَ] هو إلياسُ غِنًي عن الزيادة فيه"(٤)، ثم ذكر بسنده عن السُّدِّيِّ أن المقصود بـ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ﴾ هو إلياسُ. وفي هذه القراءة وجوه:

---

(١) تفسير الطبري-ج٢٣/ ص٩٦.

(٢) التفسير الكبير-ج٢٦/ ص١٤٠.

(٣) تفسير الطبري-ج٢٣/ ص٩٦.

(٤) السابق-ج٢٣/ ص٩٦.

أ- يقال: ميكال، وميكائيل، وميكالين. فكذا ههنا، إلياس وإلياسين. وهذا هو رأي الزجاج.

ب- هو جمع، وأراد به إلياس وأتباعه من المؤمنين، كقولهم: الْمُهَلَّبُونَ، والسَّعْدُونَ. وهذا هو رأي الفرَّاء(١).

إلىٰ ذلك ذهب أغلب المفسرين، قال الرازي:" وأما أكثر المفسرين فهم متفقون علىٰ أنه نبي من أنبياء بني إسرائيل، وهو إلياس بن ياسين، من ولد هارون أخي موسىٰ- عليهم السلام!"(٢).

إذا ما علمنا أن المقصود هو [إلياسُ]، وعلمنا أن سيرتَه- عَلَيْهِ السَّلَامُ!- تَرِدُ هنا في سورة الصافات للمرة الأولىٰ في الكتاب العزيز، ومع ذلك وردت في مثل تلك اللمحة السريعة العابرة أو في تلك الأقصوصة القصيرة الآسرة، فأقول: **إذا كان المراد بـ [إِلْيَاسِينَ] نبيَّ الله إلياس، فلِمَ وردَ جمعًا؟ وما المغزى من وراء ذلك؟**.

الجواب علىٰ ذلك بتوجيهين اثنين، أولهما دلالي، والآخر إيقاعي، وذلك علىٰ النحو الآتي:

١- الأول الدلالي هو أن النَّظْمَ الْقُرْآنِيَّ الْحَكِيمَ أراد أن يَلحق هذا النبيَّ ويصطحبَه أتباعُه وصِحَابُه في حَيِّزِ السلام من الله - سبحانه!- فَجِيء به جمعا، أو ملحقا بجمع المذكر السالم [إِلْيَاسِينَ]. قال الطبري:" وإن شئت ذهبت بـ [إِلْيَاسِينَ] إلىٰ أن تجعله جمعا؛ فتجعل أصحابَه داخلين في اسمه، كما تقول لقوم رئيسهم المهلب: قد جاءتكم المهالبة والمهلبون. فيكون بمنزلة قولهم: الأشعرِينَ بالتخفيف والسَّعْدِينَ بالتخفيف"(٣).

---

(١) التفسير الكبير-ج٢٦/ ص١٤١.

(٢) السابق-ج٢٦/ ص١٤٠.

(٣) تفسير الطبري-ج٢٣/ ص٩٥.

٢- الثَّانِي الفنيُّ الإيقاعي هو أن النَّظْمَ الْقُرْآنِيَّ الْحَكِيمَ قد حرَص علىٰ قيمة الإيقاع، واستمسك بأهدابها، فقال: ﴿ سَلامٌ عَلىٰ إِلْ ياسِينَ﴾؛ فقد رُوعِيَتْ الفاصلةُ وإيقاعُها الموسيقي في إرجاع اسم [إِلْيَاس] بصيغة الجمع [إِلْيَاسِينَ]، وذلك علىٰ طريقة القرآن في ملاحظة تناسق الإيقاع في التعبير والحرص عليها. يشبه ذلك ما أورده سيبويه لرؤبةَ بن العجَّاج [الرجز]:

أَنَا ابْنُ سَعْدٍ أَكْرَمَ السَّعْدِينَا(١)

جَمَعَ رؤبةُ [سَعْد] جمعا مذكر سالمًا؛ مراعاةً لتفعيلة الضرب، ومراعاةً لحرف الروي في القافية المطلقة، إذ إن تفعيلة الضرب وهي نفسها تفعيلة العروض [سَعْدِينَا = / o/o/o = مُسْتَفْعِلْ = مقطوع]. ولو لم يفعل الشاعرُ ذلك الإجراء لكانت التفعيلة [سَعْدِ = / o/o = مُسْتَفْ]، وساعتئذٍ يَفْسَدُ الوزن؛ إذ ليس في الرجز ضربٌ علىٰ وزن [مُسْتَفْ].

إن كان ذلك مستساغا في بيت رؤبة دلاليا ونحويا وإيقاعيا؛ إذ يجوز له ذلك لِمَا قد يكونُ منِ اسْمُهُم [سَعْد] كثيرين، قال المبرد: " فأما الجمع بالواو والنون فهو لكل اسم معروف، ليس فيه هاء التأنيث "(٢)، فإن الأمر مختلف جدًّا في الآية الكريمة؛ إذ لا مسوغ فيها لجمع [إلياس]، إلا حرصُ النَّظْمِ الْقُرْآنِيِّ الْحَكِيمِ علىٰ الإيقاع. وثمة قرينة شرعية تقضي بأن إلياس النبي - عَلَيْهِ السَّلَامُ! - لا يشاركه في اسمَه غيرُه من أنبياء الله - تعالَىٰ! - الذين قصَّهُمْ علىٰ نبيِّهِ ومجتبَاهُ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - فهو فردٌ فذٌّ، فليس معه إلياسُ ثانٍ وثالثٌ. علىٰ أية حال أقول: إن المعنيَيْن: الدلاليَّ والإيقاعيَّ، قد تآذرا علىٰ إيضاح الفكرة، وتعاضدا علىٰ إلحاق حَوَارِيِّ النَّبِيِّ إلياسَ به في محيط دائرة السلام من الله - جَلَّ فِي عُلَاهُ! - علىٰ النحو الذي قد سلف.

❁❁❁❁❁

(١) نصب [أكرمَ] علىٰ الفخر. كتاب سيبويه-ج٢/ ص١٥٣، ج٣/ ص٣٩٦.

(٢) المقتضب-ج٢/ ص٢٢٢.

النَّموذَجُ الثَّالِثُ: [وَطُورِ سِينِينَ]

نظيرُ ما سبق من تسمية إلياسَ بإلياسينَ تسميةُ طورِ سيناءَ بطورِ سينِينَ، قال- عَزَّ، وَجَلَّ!:﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ/ ٢٠]، وقال الله- تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ!: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾ [سورة التين: ١-٣].

في الآية الأولىٰ [طُورِ سَيْنَاءَ]، وفي الثانية [طُورِ سِينِينَ]، وهو في كلتا الآيتين تركيب إضافي، وإضافة [طور] إلىٰ [سينين] تعريفٌ له، وليس من قبيل الوصف والموصوف؛ إذ لو كان نعتا لكان الطور منونًا؛ لأن الشيء لا يُضاف إلىٰ نعته لغير علة تدعو إلىٰ ذلك. فأما " طور سينين فهو الجبل ذو الشجر "(١) الحسَنِ والمباركِ؛ إذ إن " كل جبل لا يحمل الثمرَ لا يقال له: سيناء "(٢).

الحاصل أن [طور سيناء] و [طور سينِينَ] موضع واحد، وموضوع واحد؛ وذلك لأن الأسماء الأعجمية " إذا وقعت إلىٰ العرب غيَّرَتْها بضروبٍ من التعبير، فيقولون: إبرهيم وإبراهم وإبرهام، وميكائيل وميكاين وميكال، وإسماعيل وإسمعيل، وإسرائيل وإسرائين "(٣)، وهكذا أيضا " سيناء وسينين، وإلياس وإلياسين ويَاسِ في قراءة [سَلَامٌ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ] بمعنًىٰ واحدٍ "(٤).

من أدلة أنهما بمعنًىٰ واحدٍ وموضع واحد وموضوع واحد أن [سَيْنَاءَ] في الآية الأولىٰ قد قرأها نافع وابن كثير وأبو عمرو بكسر السين [سِيْنَاءَ]، وأما حجة هؤلاء القرَّاءِ فقوله- تعالىٰ!: {وَطُورِ سِينِينَ}. أُضِيف إلىٰ تلك الحجة أنه قد " ثبت عن

---

(١) تفسير الصنعاني-ج٣/ ص٣٨٢.

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان-ج٣/ ص٤٩٨.

(٣) الهداية الىٰ بلوغ النهاية، لِمَكِّيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ-ج٩/ ص٦١٥٧.

(٤) إعراب القرآن، للنحاس-ج٣/ ص٤٣٨.

عمر أنه قرأ :[وَطُورِ سَيْنَاءَ]، وفي حرف ابن مسعود:[وَطُورِ سِيْنَاءَ] بكسر السين"(١).

وأما الحجة لمَنْ فتح فيرىٰ أنه " لم يأت عن العرب صفة في هذا الوزن إلا بفتح أوَّلِها، كقولهم: حمراء وصفراء؛ فحملتُه علىٰ الأشهر من ألفاظهم"(٢). والمعنىٰ في الآيتين أنه يُنبت الثمار، فـ " السيناء والسينين الحَسَنُ، وكل جبل نبتت الثمارُ فيه فهو سينين"(٣).

و [سِينِينَ] لغة في [سَيْنَاءَ]، لم ينصرفا؛ للتأنيث والتعريف، وهما معرفتان، اسمان لبقعة أو لأرض، وحكىٰ أبو حنيفة عن الأخفش وغيره أن واحد سِينِينَ سِينِينَةٌ، وهي الشجرة(٤).

إلى هنا يمكن التساؤل: طالما أن اللفظتين [سَيْنَاءَ، سِينِينَ] بمعنًىٰ واحدٍ، وأن [سِينِينَ] لغة في [سَيْنَاءَ]، فَلِمَ جاء النَّظْمُ الْقُرْآنِيُّ الْحَكِيمُ في سورة [المؤمنون] بـ[سَيْنَاءَ]، وجاء بـ[سِينِينَ] في سورة التِّين؟.

مَبْلَغُ علمي أن هذا التساؤل لم يتطرق إلى طرحه أحدٌ من مفسِّري القرآن الكريم، ولا من مُعربيه حتى يوم الناس هذا، ومِنْ ثَمَّ فإنه لم تَكُنْ ثَمَّةَ إجابةٌ عليه. بيد أنه من خلال استقراء طريقة القرآن الكريم في مثل هذه المواضع يُمكنُ القول بأن **النَّظْمَ الْقُرْآنِيَّ الْحَكِيمَ ما جاء بـ[سِينِينَ] إلا من أجل مراعاة الجانب الإيقاعي** الذي يُحدثُه اسمُ السورة [التِّين]، وتُحدثُه –

(١) تفسير السمعاني-ج٦/ ص٢٥٣.

(٢) الحجة في القراءات السبع، لابن خالويه- ص٢٥٦.

(٣) حجة القراءات، لابن زنجلة- ص٤٨٤.

(٤) يُنْظَرُ: مشكل إعراب القرآن، لِمَكِّيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ-ج٢/ ص٤٩٩، ٨٢٥* المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده-ج٨/ ص٥٨١.

أيضا- الفاصلة القرآنية في مطلع السورة، إذا الفواصل الثلاث الأُولَىٰ هي [والزَّيْتُونِ- وَطُورِ سِينِينَ- الْأَمِينِ]، وهي أيْمَانٌ بتلك البُقَع المقدسة [الأقصىٰ- طور سيناء- مكة المكرمة]، وهي معاقلُ للمسلمين.

نجد النَّظْمَ الْقُرْآنِيَّ الْحَكِيمَ قد احتشد في هذه السورة القصيرة بحرف النون؛ إذ إن الفاصلة في تلك الآيات الكريمات هي النون الساكنة وقْفًا، المكسورة وَصْلًا في الآيَتَيْنِ: الأولىٰ والثالثة [والزَّيْتُونِ- الْأَمِينِ]، والمكسورة – أيضا- في أول كلمة من السورة [وَالتِّينِ]، والمفتوحة وصلا في الآية الثانية [سِينِينَ]، المسبوقة بحرف مدٍّ في كُلٍّ؛ الواو في الآية الأولىٰ، والياء في الآيتين التالِيَتَيْنِ.

لا جرم أن لكثرة دوران حرف النون وشيوعه في سورة قصيرة آياتها ثمانٍ دلالةً يَرومها النَّظْمُ الْقُرْآنِيُّ الْحَكِيمُ ؛ فقد جاءت الفاصلة بالنون سبع مرات تخللها فاصلة مغايرة بالميم في [تَقْوِيمٍ]، وجاء حرف النون في حشو الآيات تِسعَ مرات أخرىٰ. فحرف النون مجهور أغنُّ، وهو – أيضا- رخو مستقل مصمت، ويُعَدُّ من الأصوات الضعيفة التي ينبثق منها غنة ضعيفة حزينة تسود الموقف. وهذا الجو الذي يُشِيعُه حرف النون يتناسب مع حالة الضعف في خلق الإنسان؛ إذ جاء حرف النون أربع مرات في آية الخلْقِ [خلقنا- الإنسان- أحسن]، وجاءت الفاصلة بالميم مخالفة بذلك ما سبقها وما قد تلاها؛ من أجل مناسبة غايةِ حُسْنِ التقويم وعظمةِ بهائه؛ إذ إن الله – تعالىٰ!- قد " خلق آدم أبا البشر علىٰ صورة لم يشاكلها شيء من الصور في الجمال والكمال .. فاستحقت الصورة البشرية أن تكرَّمَ، ولا تُهانَ؛ إتباعًا لسنة الله فيها، وتكريما لِمَا كرَّمه"[1]. ويتناسب ذلك الجو – أيضًا – مع رَدِّ هذا الإنسان الضعيف أسفلَ سافلين ما عدا المستَثْنَيْنَ، كما يتناسب مع نفي القلة والانتقاص

(١) مرقاة المفاتيح-ج٨/ ص٤٥٤.

والتقطيع عن أجر هؤلاء المؤمنين المستَثْنَيْنَ؛ فالتنوين في [أجر] للتعظيم. ينضاف إلىٰ ما سلف أنه يتناسب مع جو الخشوع والتبتل الذي يُشيعه ذِكْرُ تلك المعاقل الروحية الأربعة: جبل نوح، الأقصىٰ، وطور سيناء، ومكة المكرمة.

أما [سِينِينَ] التي ورد بها حرف النون مرتين مسبوقتَيْنِ بحرف الياء المكسور ما قَبلها، فقد جيء به حفاظا على هذا الإيقاع الذي تُحدثه النون في أُذن التَّالي والمستمع، وهو مطلب رئيسٌ وأساسٌ حرص على إقامته النَّظْمُ الْقُرْآنِيُّ الْحَكِيمُ بطرائقَ متعددةٍ، منها تذكير المؤنث كما في [حَسِيبًا]، ومنها تغيير بعض الأسماء الأعجمية، وجمع ما هو مفرد كما في [إِلْيَاسِينَ]، ومنها الاقتراض اللغوي أو الإتيان بلغة أخرىٰ للكلمة كما في لفظة [سِينِينَ] التي هي " الْحُسْنُ بلغة الحبشة، ونطقت به العرب"(١)، أو " المبارك بالسريانية "(٢)، أو أنها " لغة في [سِين]، وهي صحراءُ بين مصرَ وبلاد فلسطين"(٣).

أما سورة [المؤمنون] فلفظة [سَيْنَاءَ] ليست بواقعة في الفاصلة، بل في درج الكلام؛ فجاءت علىٰ أصلها لكون الإيقاع قائما بغيرها؛ بالواو والنون أو الياء والنون فيما قد سبقها وما قد تلاها من السورة عينها.

نُكْتَةٌ لَطِيفَةٌ فِي النَّظْمِ الْقُرْآنِيِّ الْحَكِيمِ:

ثَمَّةَ شيءٌ هو من الأهمية بمكان؛ لتعزيزه ما قد ذهبتُ إليه من هذا التفسير الإيقاعي الذي حرَص عليه النَّظْمُ الْقُرْآنِيُّ الْحَكِيمُ في تلكم السورة المكية القصيرة. ذلك الأمر هو أن **الترتيب الواقعي الخارجي لنزول الشرائع** هكذا [نوح- إبراهيم- موسىٰ- عيسىٰ- محمد]-عليهم الصلاة والسلام!- وهذه الأديان صُرِّحَ بها في قوله- سُبْحَانَهُ!:﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ

(١) النكت والعيون، تفسير الماوردي-ج٦/ ص٣٠١.

(٢) الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، الواحدي-ج٢/ ص١٢١٤.

(٣) تفسير التحرير والتنوير-ج٣٠/ ص٤٢١.

إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ [الشورىٰ/ ١٣]، بيد أنه قد جِيءَ برسالة النَّبِيِّ- صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!- إثر رسالة نوح؛ تشريفا لحبيب الحق وسيد الخلق - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!- وتعظيما لرسالته.

أما سورة [التين] فقد بدأت بِقَسَم ربِّنا - جَلَّ جَلَالُهُ!- بموارد أعظم الشرائع الواردة للبشر؛ إذ إن مهابطَ أَشْهَرِ الأديان الإلهية علىٰ النحو الآتي:

١- **التينُ** إيماءٌ إلىٰ رسالة نوح، وهي أول شريعة لِرسولٍ.

٢- **الزيتونُ** إيماءٌ إلىٰ شريعة **إبراهيمَ**؛ فإنه بنىٰ المسجد الأقصىٰ.

٣- **طورُ سينينَ** إيماءٌ إلىٰ شريعة **مُوسى**، وهي التوراة.

٤- **البلدُ الأمينُ** إيماءٌ إلىٰ مهبِط شريعة الإسلام.

وبهذا يكون الترتيب الذِّكْرِيُّ الواردُ للشرائع في هذه السورة [نوح - إبراهيم- موسىٰ- محمد] غيرَ جارٍ علىٰ ترتيب ظهورها الواقعيِّ الخارجيِّ.

إن ثمة تأويلًا آخرَ؛ أن يكون [الزيتون] بمعنَىٰ المكانِ، وبأنه المسجد الأقصىٰ، وذلك إيماءٌ إلىٰ مكان ظهور شريعة عيسىٰ - عَلَيْهِ السَّلامُ!- لأن المسجد الأقصىٰ بنَاه سليمانُ - عَلَيْهِ السَّلامُ!- فلم تنزل فيه شريعةٌ قبلَ شريعة عيسىٰ، ويكون قوله- تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ!:﴿ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ إيماءً إلىٰ شريعة إبراهيم وشريعة الإسلام معًا؛ فإن الإسلام قد جاء علىٰ أصول الحنيفية.

وفي كلا التفسيرين السَّالِفَيْنِ مخالفةٌ بين الترتيب الذِّكْرِيِّ والترتيب الواقعيِّ الخارجيِّ لنزول الشرائع، وذلك على النحو الآتي:

١- علىٰ التفسير الأول لم يقع في الترتيب الذكري إيماءٌ إلىٰ شريعة عيسىٰ؛ لأنها تكملة لشريعة التوراة.

٢- علىٰ التفسير الثاني نجد أن شريعة [عيسىٰ] سبقت شريعة [موسىٰ] في الترتيب الذكري.

فما تفسير مخالفة الترتيب الذكري لِأَشْهَرِ الأديان الترتيبَ الواقعيَّ الخارجيَّ الفعليَّ لنزولها؟

تَوْجِيهُ مُخَالَفَةِ التَّرْتِيبِ الذِّكْرِيِّ التَّرْتِيبَ الْخَارِجِيَّ:

يُمْكِنُ توجيهُ مخالفةِ الترتيب الذكري لظهور الشرائع الترتيبَ الخارجي بأمرين اثنين، هما:

١- أن المخالفة بينهما من أجل **مراعاة النظير**؛ أي مراعاة اقتران الاسمين المنقولين عن اسمي الثمرتين [التين- الزيتون]؛ **ومراعاة مقارنة الاسمين** الدالَّيْنِ علىٰ نوعين من أماكن الأرض [طور سينين- البلد الأمين]، وهذا المُحَسِّنُ يتضافر مع مُحَسِّنِ الإيقاع في إبراز ملمح جِدِّ مُهِمٍّ في إعجاز النَّظْمِ الْقُرْآنِيِّ الْحَكِيمِ.

٢- أن المخالفة بين الترتيبَيْنِ من أجل أن **يناسب** [**سِينِينَ**] **فَوَاصِلَ السورة**؛ علىٰ طريقة النَّظْمِ الْقُرْآنِيِّ الْحَكِيمِ في الحرص علىٰ مراعاة الجانب الإيقاعي، ولو كان ذلك علىٰ حساب القاعدة أو الترتيب الخارجي لمهابط الشرائع، ولا يَقْطَعُ النَّظْمُ الْقُرْآنِيُّ الْحَكِيمُ هذا الإيقاع إلا لمعنًىٰ مهمٍّ لا يؤدَّىٰ إلا بذلك القطع، مثلما قطعه بـ [تقويم] في السورة ذاتها. ولهذا النسق من قطع الإيقاع معالجةٌ أخرىٰ منفردة.

النَّموذَجُ الرَّابِعُ: [النَّفْسُ]

إن النَّظْمَ الْقُرْآنِيَّ الْحَكِيمَ قد يذكِّر المؤنَّث، ويُؤَنِّثُ المذكَّرَ؛ لإقامة الإيقاع، فيُراعي الْمعنىٰ دون اللَّفظِ، ففي قوله- تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ!:﴿ * هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ﴾ [الأعراف/ ١٨٩] نجد أن النفس مؤنثة، بدليل وصفِها بمؤنَّثٍ، فقال [واحدة]، ولم يقل: نفْسٍ واحدٍ، رغم أن المقصود بها هو آدم- عَلَيْهِ السَّلَامُ!- وأما الزوج فمذكرة لفظًا، والمقصود بها حوَّاءُ،؛ فأعاد إليها الضمير مؤنثًا في [إِلَيْهَا].

وفي حَدِّ كلام العرب أنه إذا " أُرِيدَ بلَفْظٍ مؤنَّثٍ معنًىٰ مُذَكَّرٌ؛ فإنَّهم يَنْظُرُون إلىٰ المُراد دُونه اللَّفْظ، فَيُلْحِقُون التَّاء في عددِ المُؤنَّث، ومنه قول الْحُطَيْئَةِ [ت٤٥هـ] من [الوافر]:

ثَلَاثَةُ أَنْفُسٍ وثَلَاثُ ذَوْدٍ(١) لَقَدْ جَارَ الزَّمَانُ علىٰ عِيَالِي(٢)

فألحَق التَّاء في عدد [أَنْفُس]، وهي مُؤَنَّثةٌ؛ لأنَّها يراد بها ذُكُورٌ"(٣)، أو يريد ثلاثة أَنَاسيّ، أو ثلاثة عِبَادٍ، أو في معنىٰ شخوصٍ التي مفردها شخصٌ، وهو مذكَّر. قال البغدادي:" وكان القياس ثلاث أنفس؛ لأن النفس مؤنثة، لكنْ أَنَّثَ؛ لكثرة إطلاق النفس علىٰ الشخص"(٤). من ذلك الحديث:" وَلَا فِيمَا دُونَ خَمْسِ ذَوْدٍ صَدَقَةٌ"(٥)؛ فقد ضبطه " الجمهور [خَمْسِ ذَوْدٍ]، ورواه بعضهم [خَمْسَةِ ذَوْدٍ]، وكلاهما لِرُوَاةِ كِتَابِ مُسْلِمٍ(٦)، والأول أشهر، وكِلَاهما صحيح في اللغة؛ فإثبات

---

(١) يَعْنِي: ثَلَاثَ أَيْنُقٍ. والذود من الإبل لا واحد له من لفظه، وهو " عند أهل اللغة من الثلاثة إلىٰ العشرة". الاستذكار-ج٣/ ص١٢٦.

(٢) كتاب سيبويه-ج٣/ ص٥٦٥.

(٣) اللباب في علوم الكتاب-ج٨/ ص٥٣٢، ٥٣٣.

(٤) خزانة الأدب-ج٧/ ص٣٤٣.

(٥) موطأ مالك-ج١/ ص٢٤٤.

(٦) الْإِمَامُ مسلِمٌ بن الحجَّاج.

الهاء لإطلاقه علىٰ المذكر والمؤنث"[١]. وقرر السمين الحلبي هنا أن " **اسمُ الجمع لِمَا لَا يَعْقِل يُذَكَّر ويؤنَّثُ، وهنا جاء مذكرًا لثبوتِ التاءِ في عددِه**"[٢].

إلىٰ ما سبق فلا ضير، أما قوله- تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ!:﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء/ ١٤]، فإن الفصيحَ في [النفس] هو التأنيث[٣]، فلو كان في غير القرآن لقيل: حَسِيبَةً، بيد أن [حَسِيبًا]- وهي تمييز أو حال- جاءت مذكرةً.

فلِمَ ذَكَّرَهَا النَّظْمُ الْقُرْآنِيُّ الْحَكِيمُ؟

هنا جوابان:

أحدُهما يراعي المعنى، فيحمله عليه، بأنه " بمنزلةِ الشاهدِ والقاضي والأمين، وهذه الأمور يَتَوَلاَّها الرجالُ، فكأنَّه قيل: كفىٰ بنفسِك رجلًا حسيبًا، ويجوز أَنْ تُتَأَوَّلَ [النفسُ] بمعنىٰ الشخصِ"[٤]. **ثانيهما يراعي سطوة العنصر الإيقاعي** بأن النَّظْمَ الْقُرْآنِيَّ الْحَكِيمَ ذّكَّر [حَسِيبًا]؛ مراعاة للفاصلة القرآنية الْمُطْلَقَةِ؛ اتساقا مع الفواصل قبلها وبعدها في السورة ذاتها التي بلغت إحدىٰ عشرة آيةً ومائة، فواصلها كلها بألف الإطلاق ما خلا الآيةَ الأولىٰ منها؛ إذ إن فاصلة هذه الآية هي [البَصِيرُ]، وهي بالوقف عليها فاصلة مقيدة؛ لكونها متطلبا دلاليا في تذييل الآية الأولىٰ التي هي مطلع السورة. مما سلف تكون **مراعاة العنصر الإيقاعي** المهم وحرصُ النَّظْمِ الْقُرْآنِيِّ الْحَكِيمِ **عليه هو الأرجحَ** من التأويل بالمعنىٰ والحمل عليه.

❁❁❁❁❁

(١) شرح النووي علىٰ صحيح مسلم-ج٧/ ص٥١.

(٢) الدر المصون-ج٢/ ص٥٧٥.

(٣) السابق-ج٨/ ص٦٢٣.

(٤) السابق نفسه-ج٧/ ص٣٢٥.

النَّموذَجُ الخَامِسُ: ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾

هذا النموذج يتصل بالنموذج السابق الخاص بكون كلمة [النفس] لفظة مؤنثة. قال الله – تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُه!: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ **[البقرة/ ٤٨]، وقال- جَلَّ جَلالُهُ!:** ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ١٢٣﴾ [سورة البقرة:١٢٣].

هاتان الآيتان في سورة واحدة من الكتاب العزيز، متشابهتان لفظا، متباينتان معنًىٰ؛ لاختلاف معنىٰ الشفاعة في الآية الأولىٰ عن الأخرىٰ؛ إذ إن معناها في الآية الأولىٰ [التشفع]، ومن ثم فقد كان الحمل علىٰ المعنىٰ هو المخرج في تذكير [الشفاعة] في الآية الأولىٰ، وتأنيثها في الآية الثانية. وليس ذلك مناط التناول هنا؛ لأن المراد هو معالجة لفظة [النفس] في كلتا الآيتين الكريمتين.

لا جرم أن الفصيحَ في لفظ [النفس] هو التأنيث(١)، بيد أن القرآن اختتم الآيتين بقوله- سُبْحَانَهُ!: ﴿ **وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ** ﴾**[البقرة/ ٤٨]، وهي جملة اسمية مُصَدّرَةٌ بالمبتدأ مُخْبَرًا عنه بالفعل المُضَارع؛ تنبيهًا علىٰ المُبَالغة والتأكيد في عدم النصرة. والضمير في [وَلَا هُمْ] عائدٌ علىٰ النفس. فأنَّى لضميرِ جمعِ المذكرِ [هُمْ] يعود على مفرد مؤنث؟ وأنَّى لواو الجماعة في [يُنْصَرُونَ]، وهو ضمير في محل رفع علىٰ ما لم يُسَمَّ فاعلُه، عائد – أيضًا- علىٰ النفس، فأنىٰ للواو وهي ضميرٌ لجمعِ المذكرِ أن تعود علىٰ مفردٍ مؤنثٍ؟**

الجواب على ذلك بتوجيهين اثنين، أولهما دلالي، والآخر إيقاعي، وذلك على النحو الآتي:

(١) الدر المصون-ج٨/ ص٦٢٣.

الْأَوَّلُ الدَّلَالِيُّ: هو أن المراد بالنفس جنسُ الأنفس، وإنما " عاد الضمير مذكرًا، وإن كانت النفس مؤنثةً؛ لأنّ المراد بها العباد والأَنَاسِيّ"(١).

الثَّانِي الْإِيقَاعِيُّ: أنَّ ضميرَيِ الرفع لجمع المذكر: الضمير المنفصل [هم]، والضمير المتصل [واو الجماعة]، قد عادا علىٰ مفرد مؤنثٍ؛ **مراعاة للفاصلة القرآنية** المختومة بواو ونون أو ياء ونون في الأعم الأغلب من سورة البقرة كلها، وقبل الآية وبعدها؛ أما الآية الأولىٰ فقبلها [تعلمون- الراكعين- تعقلون- الخاشعين- راجعون- العالمين]، وبعدها [تنظرون- ظالمون- تشكرون- تهتدون]. وأما الآية الثانية فقبلها [الخاسرون- العالمين]، وبعدها [الظالمين]. ولا غرو في حرص النَّظْمِ الْقُرْآنِيِّ الْحَكِيمِ علىٰ إجراء هذا المسلك الإيقاعي المتسق مع التوجُّه العام لهذه اللغة الشريفة؛ حيث إنها تُؤْثِرُ إقامة الجانب الإيقاعي أو الموسيقي علىٰ الجانب اللغويِّ، ولو كان لا سبيل إلىٰ ذلك إلَّا بِسلبِ القاعدةِ النحوية.

❁❁❁❁❁

(١) اللباب في علوم الكتاب-ج٢/ ص٥٠.

النَّموذَجُ السَّادِسُ:[الْوَارِثُونَ]

وردت لفظة [الوَارِثُون] مرتين في القرآن، وهي في كلتا المرتين خبر مرفوع وعلامة الرفع الواو؛ لكونه جمعَ مذكرٍ سالما. أما الأولىٰ فقوله- جَلَّ جَلَالُهُ!:﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ [الْحِجْر/ ٢٣]، وهي في الآية الكريمة بصيغة اسم الفاعل؛ اتساقا مع الفاصلة التي قبلها، والفاصلة التي بعدها، وكلتا الفاصلتين بالصيغة عينها، فالفاصلة القبلية هي ﴿ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ ، وأما الفاصلة البعدية فهي ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾.

ولا يخفىٰ حرص النَّظْمِ الْقُرْآنِيِّ الْحَكِيمِ علىٰ جانب الإيقاع بالحرص علىٰ صيغة وزن اسم الفاعل في الآيات الثلاث.

أما الثانية فقوله-عز وجل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾ [سورة المؤمنون: ١٠-١١].

ومن المعلوم من الدين بالضرورة أن الله- تقدست أسماؤه!- هو الذي يُدخلُ المؤمنين الجنة برحمته، ويُورِثُها المتقين من عباده؛ لقوله- تَعالىٰ! :﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عِمرانَ/ ١٨٥]، ولقوله- سبحانه!:﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم،/ ٦٣]، وقوله- جَلَّ فِي علاه!:﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف/ ٤٣]. فكان المتوقَّعُ أن يُقَال في غير القرآن [أُولَئِكَ هُمُ الْمُورَثُونَ * الَّذِينَ يُورَثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ]؛ بصيغة اسم المفعول [الْمُورَثُونَ]، وصيغة ما لمْ يُسَمَّ فاعلُه [يُورَثُونَ]، بيد أن النَّظْمَ الْقُرْآنِيَّ الْحَكِيمَ قد عدل عن صيغة اسم المفعول [الْمُورَّثُونَ] وهي الأنسب لما قرره القرآن في مواضع كثيرة إلىٰ صيغة اسم الفاعل [الوارثُون].

فلمَ سلك النَّظْمُ الْقُرْآنِيُّ الْحَكِيمُ ذلك المسلك الرشيق المُذْهِل، وعدل ذلك العدولَ الدقيق المُشْكِل؟

اتِّكاءً علىٰ سمتِ النَّظْمِ الْقُرْآنِيِّ الْحَكِيمِ فإن ذلك العدول لم يكُ إلا مراعاةً لجانبين: الجانب الإيقاعي، والجانب الدلالي. وكلا الجانبين متلازمان متضامَّانِ في الأعم الأغلب، لا ينفك أحدهما عن الآخر.

أما مراعاة النَّظْمِ الْقُرْآنِيِّ الْحَكِيمِ الجانبَ الإيقاعيَّ فبحرصه علىٰ التزام صيغة اسم الفاعل في سبعِ فواصلَ قبلية، وفاصلة بعدية، أما الفواصل القبلية فهي [المؤمنون- خاشعون- معرضون- فاعلون- حافظون- العادون- راعون]، ينضاف إلىٰ تلكم الفواصل السبع فاصلة ثامنة وردت بصيغة الفعل المضارع، وهي [يُحَافِظُونَ]، ولا جرم أن الفعل المضارع بوزن اسم الفاعل. وأما الفاصلة البعدية فهي [خالدون]، ولم يخرج عن ذلك من الفواصل القبلية إلا واحدة هي [غَيْرُ مَلُومِينَ]، ولهذا العدول دلالة يُنَاقَشُ فِي موضعه.

ذلك العدول الإيقاعي لا يخلو ألبتة – كما أسلفتُ- من ملمح دلالي سامٍ يُرِيغُ إليه النَّظْمُ الْقُرْآنِيُّ الْحَكِيمُ، ويرومه، ويتغيَّاه، ويسعىٰ إليه سعيا، ويطلبه حثيثا. فهؤلاء المؤمنون الذين قد أكَّد الله- سُبْحَانَهُ!- فلاحَهم قد عدلوا عن الشرود في صلاتهم إلىٰ الخشوع فيها، وأعرضوا عن اللغو إلىٰ الجد، وعدلوا عن البخل إلىٰ إيتاء الزكاة، وعن هتك الأعراض إلىٰ حفظها وصيانتها وإحصانها، وعن ضياع الأمانات والغدر بالعهود إلىٰ أدائها ورعايتها، وعن ضياع الصلوات إلىٰ الحفاظ عليها في أوقاتها.

ومن ثمَّ فإن العدول من كون الله – جلَّ جلاله!- هو المُورِثَ إلى أن هؤلاء هم الوارثون الخالدون لم يكن إلا تقديرا منه- سبحانه!- لأعمالهم الصالحة، وتحملهم مشقة الطاعة، وعناءِ العبادة، وعنتَ الثبات عليها؛ فكان ذلك جزاءً منه لسعيِهم للدار الآخرة سعيَها، فكان سعيُهم مشكورا.

إن هذا العدول الأخلاقيَّ والْعِبَادِيَّ قد ناسبه عدولٌ لغوي من صيغة اسم المفعول [الْمُورَثُون] إلىٰ صيغة اسم الفاعل [الوَارِثُون]، فالله – عَزَّ، وَجَلَّ! هو الذي يُورِثُ هؤلاء المؤمنين مساكنَ أهل النار فيها لو آمنوا. وإن ذلك العدول المكاني قد ناسبه- أيضا- عدولٌ لغويٌّ من تذكير لفظة [الفردوس] إلىٰ تأنيثها. ومن أسامي الجنة كلها إلىٰ اسم الفردوس؛ لكونها أعلىٰ مراتب الجنان وأفضلها.

النموذج السَّابعُ: [تَرْكُ ذِكْرِ الْعَدَدِ]

قال الله- جَلَّ جَلَالُهُ!:﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصَّافَّات/ ١٤٧]، والمعنىٰ أن الله – تعالىٰ!- أرسل يونُس بن متَّىٰ إلىٰ أهل نَيْنَوَىٰ من أرض الموصل بعد أن نبذه الحوت. وكان عددهم يزيد علىٰ مائة ألف. وفي الآية الكريمة أمران مهمان يترتب ثانيهما علىٰ أولهما، أما الأمر الأول فهو معنىٰ حرف النسق [أَوْ]. وأما الثاني فهو الإبهام في العدد علىٰ المخاطب.

الْأَمْرُ الأوَّلُ: مَعْنَى حَرْفِ النَّسَقِ [أَوْ].

ليس حرف النسق [أَوْ] يفيد الشكَّ أو الاختيار؛ فالله – جلَّ ذكره!- غير جائز في خبره الشك؛ فهو عالم أي ذلك كان، بل حرف النسق [أو] ها هنا من أبواب الوجهَيْنِ، فله وجوهٌ ومعانٍ عدة ذكرها النحويون وطائفة من اللغويين والمفسرين:

١- بمعنى الواو للجمع والموالاة:

وقد " قُرِئَ:﴿ وَيَزِيدُونَ ﴾ بالواو"(١)؛ لأن الحرفين يتناوبان لتقارب معناهما. غير أن المبرد حكم بفساد مجيء [أو] بمعنىٰ الواو أو بمعنىٰ بل، ورجَّح أن تكون [أَوْ] علىٰ بابها، والمعنىٰ: أرسلناه إلىٰ جماعة، لو رأيتموهم لقلتم مائة ألف أو أكثر(٢). وذلك رأي ابن جني في ذكر المعنىٰ الثاني الآتي.

٢- على أصلها للشكِّ:

يرىٰ ابن جني أن [أو] جاءت علىٰ حقيقتها لإفادة الشك، فلا تكون " علىٰ مذهب الفراء بمعنىٰ بل، ولا علىٰ مذهب قطرب في أنها بمعنىٰ الواو. لكنها عندنا علىٰ بابها في كونها شكًّا. وذلك أن هذا كلام خرج حكايةً من الله -عز وجلَّ!- لقول المخلوقين. وتأويله عند أهل النظر: وأرسلناه إلىٰ جمع لو رأيتموهم لقلتم أنتم

(١) الكشاف-ج٤/ ص٦٤.

(٢) يُنْظَرُ: المقتضب-ج٣/ ص٣٠٤، ٣٠٥* وَيُنْظَرُ: معاني القرآن، للنحاس-ج٦/ ص٦٢.

فيهم: هؤلاء مائة ألف أو يزيدون"[1]. فجعل المعنىٰ علىٰ شك المخاطبين؛ إذ كان الله – تعالىٰ!- لا يجوز عليه الشك؛ أي " هم أصحاب شارة وجمال، إذا رآهم الناس، قالوا: هؤلاء مائتا ألف"[2].

ويرىٰ أبو الفتح أن إتيانها علىٰ الأصل أوضح وأنسب وأوفق[3]؛ لأنه قد " خوطب العباد بما يعرفون"[4]؛ أي أنهم " خُوطبُوا علىٰ قدْرِ ما يَجْري في كلامهم"[5].

٣-الإباحة:

ذهب قوم إلىٰ جعلها من باب الإباحة، وليس من باب الشكِّ وتَخَيُّرِ أحد المذكورين وحَظْرِ الجمعِ بينهما. ومعنىٰ الإباحة معنًىٰ دقيقٌ جدًّا، وبيان ذلك عندهم أنها " بمعنىٰ الإباحة. كأنه قال: إذا قال قائل: هم مائة ألف. فقد صدق"[6]. وتقدير المعنىٰ علىٰ الإباحة هنا أنه إن قلتم: هم مائة ألف، كانوا مثل ما قلتم، وإن قلتم: هم مائة ألف ويزيدون، كانوا مثل ما قلتم.

٤-الإبهام:

رغم ما سلف من تعدد آراء أهل العربية والمفسرين في معنىٰ [أو]، ورغم أن لكل منهم وجهًا فيما ذهب إليه، إلا أن معناها ما يزال مبهما، لمس هذا الإبهامَ الجصَّاصُ، فذكر أن " معنىٰ [أو] ههنا الإبهام، كأنه قال: أرسلناه إلىٰ أحد

---

(١) الخصائص-ج٢/ ص٤٦١.

(٢) غريب الحديث، للخطابي-ج٢/ ص٢١٠.

(٣) يُنْظَرُ: سر صناعة الإعراب-ج١/ ص٤٠٦.

(٤) الهداية الىٰ بلوغ النهاية، لِمَكِّيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ-ج٩/ ص٦١٧٠.

(٥) البحر المحيط في أصول الفقه-ج٢/ ص٢٥.

(٦) الصاحبي في فقه اللغة- ص٣٠.

العددين"[١]. وإن كان الله تعالىٰ عالمًا أيُّ ذلك هو؟ فهي " بمنزلة قولك:[جاءني زيد أو عمرو]. وأنت تعرف من جاءك منهما، إلا أنك أبهمتَ علىٰ المخاطَب"[٢]. فالله – تعالىٰ!- أراد " أن يبهمه علىٰ العباد؛ فقال ذلك، كما يقول المرء لغيره: أكلت خبزًا أو تمرًا، وهو لا يشك أنه أكل أحدهما"[٣]؛ فكذلك الشك علىٰ علام الغيوب محال.

مناقشةٌ وَتَرْجِيحٌ:

من المعاني التي ذكرها مُحَقِّقَةُ النحويين وعدد من المفسرين وأهل التأويل أُرَجِّحُ من أن يكون معنىٰ [أَوْ] للإبهام والشكِّ معًا، بيد أن كلا المعنيَيْنِ خاصَّان بالمخاطب والسامع لا بالمُخْبِرِ، فيكون المعنىٰ: وأرسلناه إلىٰ عصبة هم مائة ألف، أو يزيدون علىٰ مرأىٰ الناظر عندكم أيها المخاطَبونَ؛ إذ إنكم لو رأيتموهم لَتَرَدَّدْتُمْ، وقلتم: مائة ألف أو يزيدون. وذلك كرجل رأىٰ أناسًا، فيقول: هؤلاء ألف، أو يزيدون؛ فيكون الشك في عِدَّتِهم راجعًا إلىٰ ذلكم الرجل الرائي لكثرتهم عدَدًا. وعليه يكون المعنىٰ في [أو يزيدون] محمولًا علىٰ تنزيل الخطاب علىٰ قدر فهم المخاطب، ومن هذا التأويل يتضح " وجه العطف من حيث المعنىٰ كأنه قيل: وأرسلناه إلىٰ جَمٍّ غفيرٍ مَقُولٍ فيهم: إنهم مائة ألف أو يزيدون"[٤]، والمراد والغرض هو وصفهم بالكثرة، وهذا أَلطف مما يُقَدَّرُ فيه؛ إذْ إنَّ الشك علىٰ اللهِ محالٌ– سبحانه!.

---

(١) أحكام القرآن، للجصاص–ج٥/ ص٢٥٣.

(٢) الهداية الىٰ بلوغ النهاية، لِمَكِّيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ–ج٩/ ص٦١٧٠.

(٣) التفسير الكبير–ج٣/ ص١١٨.

(٤) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان–ج٥/ ص٥٧٦.

الْأَمْرُ الثَّانِي: الْإِبْهَامُ فِي الْعَدَدِ عَلَى الْمُخَاطَبِ:

جاء في مِقْدَارِ الزِّيَادَةِ وَمَبْلَغِهَا فِي [أَوْ يَزِيدُونَ]، منها أنها " عِشْرُونَ أَلْفًا"(١). وثمَّةَ قولٌ لابن عباس بأنهم " كانوا مائة ألف، وبضعة وثلاثين ألفا"(٢). بيد أن النَّظْمَ الْقُرْآنِيَّ الْحَكِيمَ لم يفصح عن تلك الزيادة، ولم يحددْ مقدارها في هذه الآية ولا في غيرها، وكان يمكن أن يُقال في غير القرآن:[وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةٍ وَعِشْرِينَ أَلْفًا]، أو يُقال:[وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ أَلْفٍ].

مع كون هذه الجملة غير القرآنية- وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةٍ وَعِشْرِينَ أَلْفًا- أكثر اختصارا؛ إلا أن النَّظْمَ الْقُرْآنِيَّ الْحَكِيمَ قد آثر أن يأتي بفعل مضارع من الأفعال الخمسة مسند إلىٰ واو الجماعة مرفوع بثبوت النون:{أَوْ يَزِيدُونَ﴾، علىٰ هذا النحو الذي أبهم فيه علَىٰ المخاطَبِ العددَ الزائد المعطوف علىٰ العدد المذكور، وطواه عنه، رغم أن المخَاطِبَ - سبحانهُ!- يعلمه، وهو تشْكِيكٌ لا بد من غرض وراءه، كما ألمح الزركشي في تعريفه الإبهامَ بأن " أنْ يكُونَ الْمُتَكَلّمُ غير شاكٍّ، وَلَكنَّهُ أَبْهَمَ علىٰ السَّامعِ لغَرَضٍ"(٣)، وأكد ذلك في موضع آخر " وَبِالجُمْلَةِ الإِخْبَارُ بِالمُبْهَمِ لا يَخلُو عن غرَضٍ"(٤). وذكر الكَفَوي مثل ذلك " وأما المتكلم في الإبهام، فإنه يعرف التعيين، لكنه أبهمه علىٰ السامع لغرض الإيجاز أو غيره"(٥). تُرىٰ ما الغرض أو العلة من وراء ذلك المسلك، ومن وراء هذا الإيثار؟

---

(١) سنن الترمذي-ج٥/ ص٣٦٥.

(٢) العقوبات، لابن أبي الدنيا- ص١٢٠* قدِ اخْتُلِفَ في قدر زيادتهم علىٰ مائة ألف علىٰ خمسة أقاويل. ولا يتعلق بالخلاف في هذا كثير فائدة.

(٣) البحر المحيط في أصول الفقه-ج٢/ ص٢٥.

(٤) السابق-ج٢/ ص٢٦.

(٥) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية- ص٢٠٦.

قبل الجواب أؤكد هنا علىٰ أن الله – جلَّ شأنُه!- لا يريد أن يُلبِّس علينا إنما يريد أن يبين لنا، بل قد تكون " المصلحة تارة في الإبهام، وتارة في التبيين، كقوله – تعالىٰ!:﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [سورة الإسراء:٨٥] (١)، ولم يبين بهذا الكلام"(٢). ولَعَلَّ الْإِبْهَامَ في الخَبَرِ علىٰ المخاطَبِ أو السَّامعِ لعَجْزِهِ عن بلُوغِ حقَائِقِ الأَشْيَاءِ، ومِنْ ثمَّ يكون " القَصْدُ من الإِبْهَامِ تَهوِيلَ الأَمْرِ علىٰ المُخَاطَبِ من إطلَاقِهِ علىٰ حقِيقَتِهِ"(٣). وقد أشرت فيما سلف إلىٰ أن حَمْلَ [أَوْ] علىٰ ذلك المَعْنَىٰ هو من صِناعَةِ الحُذَّاقِ وذَلِكَ أَولَىٰ من إخرَاجِهَا إلىٰ مَعنَىٰ الوَاوِ.

أما الجواب فهو أن المتأمل في طرائق النَّظْمِ الْقُرْآنِيِّ الْحَكِيمِ في حرصه علىٰ إقامة الإيقاع لاهتدىٰ إلىٰ أن عدوله عن ذكر العدد الزائد، وإيثاره الإبهامَ علىٰ المخاطَب كان من أجل الحفاظ علىٰ اللازمة الموسيقية التي لزمت سورة الصافات بدءًا ومختَتَمًا، ولو بسلب القاعدة بالإبهام؛ من أجل ذلك جِيءَ بالفعل المضارع ﴿يَزِيدُونَ ﴾ مرفوعا بثبوت النون، مسندا إلىٰ واو الجماعة؛ لتنتهي الفاصلة بنونٍ مردوفة بالواو؛ فتتناسب مع الإيقاع قبلها وبعدها في السورة ذاتها. وبنظرة سريعة إلىٰ المقطع التي وردت فيه الآية يتأكد ما ذهبت إليه؛ قال الله – تعالىٰ ذكْرُهُ!:﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ * فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [سورة الصافات:١٣٩-١٤٨].

---

(١) تمام الآية:﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

(٢) نزهة الأعين النواظر- ص١١٠.

(٣) البحر المحيط في أصول الفقه-ج٢/ ص٢٥.

الفواصل الواردة في الآيات المذكورة عَشْرَةٌ على النحو الآتي:

١- ثلاث فواصل، حرفها النون المردوفة بالياء [الْمُرْسَلِينَ-الْمُدْحَضِينَ-الْمُسَبِّحِينَ- يَقْطِينٍ- حِينٍ].

٢- ثلاث فواصل، حرفها النون المردوفة بالواو[الْمَشْحُونِ- يُبْعَثُونَ- يَزِيدُونَ].

٣- فاصلتان، حرفهما الميم المردوفة بالياء في [مُلِيمٌ- سَقِيمٌ].

والفواصل العشر قائمةٌ علىٰ حَرْفَيِ النون والميم، وهما متقاربان، والتناوب بينهما لا يشكل عيبا إيقاعيا، ولو كان في الشعر، ومثله التناوب في حرف الردف بين الواو والنون. فالإيقاع متماسك جدا ومتلاحم ومتلاحق من بدء السورة إلىٰ منتهاها؛ **ولحرص النَّظْمِ الْقُرْآنيِّ الْحَكيمِ عليه في الآيات السالفات كان الإبهام في العدد الزائد في [يَزِيدُونَ]. وبخاصة أن [يَزِيدُونَ] فعلٌ، ولا يصح عطفه على المجرور بـ [إلى]؛ فان حرف الجر لا يصح تقديره على الفعل؛** ولذلك لا يجوز [مررت بقائم، ويقعد]، إلا إذا اعتبرنا [يَزِيدُونَ] خبرَ مبتدأٍ محذوفٍ في محل رفع، والتقدير [أَوْ هُمْ يَزِيدُونَ] أَوْ [إِلَىٰ مِائَةٍ وَجَمَاعَةٍ هُمْ يَزِيدُونَ]. وإنما جاز عطف الاسمية علىٰ الفعلية بـ [أَوْ]؛ لاشتراكهما في مطلق الجملة. أؤكِّد في مختَتَم هذه المعالجة علىٰ أن الحرص علىٰ الإيقاع واللازمة الموسيقية لا يتعارض ألبتةَ مع التخريجات السالفة من السادة النحويين والمفسرين واللغويين.

ملمح موسيقي آخر في [يُبْعَثُونَ]:

قال الله – تعالىٰ ذكْرُهُ!:﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [سورة الصافات:١٤٣-١٤٤]؛ أي لولا أن يونُسَ- عليه السلام!- كان من العريقين في مقام التسبيح، ملازم لتنزيه ربه في وقت الرخاء والدعة والخفض والسعة، وفي حال الشدة للبث في بطن الحوت حيًّا، أو بأن يكون غذاء له؛ فتختلط أجزاؤه بأجزائه إلىٰ يوم يبعثون.

يُلاحظ أن الحديث هنا عن اثنين: يونس- عليه السلام!- والحوت، فكان المقتضىٰ في غير القرآن أن يَكونَ التعبير بالمفرد:[لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُ]، أو بالمثنىٰ [لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثَانِ].

بيد أن النَّظْمَ الْقُرْآنِيَّ الْحَكِيمَ قد عدل عن المفرد والمثنى إلى الجمع؟

العدول هنا لغرضين متلازمين: الأول هو الحرص علىٰ الجانب الإيقاعي واللازمة الموسيقية علىٰ الوجه الذي بينته آنفا، والآخر دلالي؛ فقد " عبر بالجمع لإفادة عموم البعث، ولو أفرد لم يفد بعث الحيوانات العجم، ولو ثنىٰ لظن أن ذلك له وللحوت خاصة لمعنًىٰ يخصُّهما، فلا يفيد بعثَ غيرهما"[(١)] من الخلائق.

❁❁❁❁❁

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور-ج٦/ ص٣٤٢.

النَّموذَجُ الثَّامِنُ: [الْفَصْلُ بَيْنَ الْمُتَضَامَّيْنِ لِإِقَامَةِ الْإِيقَاعِ]

قد فصل النَّظْمُ الْقُرْآنِيُّ الْحَكِيمُ بين المتلازمين - رغم فساد المعنىٰ بالوقف علىٰ الفاصلة- من أجل صيانة الإيقاع وإقامة اللازمة الموسيقية ولو علىٰ حساب القاعدة النحوية؛ ففصل بين الصفة والموصوف في قول الله- جَلَّ جَلَالُهُ!- مبينًا سوءَ معاملة المنافقين مع الخالق والخلق:﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾ [سورة الماعون: ١-٧].

سبْعُ آياتٍ بسبعِ فواصل في قسمة إيقاعية إبداعية على النحو الآتي:

١- ثلاثُ فواصل، حرفها النون المردوفة بالياء [بِالدِّينِ- الْمِسْكِينِ- لِلْمُصَلِّينَ].

٢- ثلاث فواصل، حرفها النون المردوفة بالواو[سَاهُونَ - يُرَآءُونَ - الْمَاعُونَ].

٣- فاصلة واحدة، حرفها الميم المردوفة بالياء في [الْيَتِيمَ].

من معاني فصل الخطاب ألا يخطئ صاحبه مظانّ الفصل والوصل؛ فلا يَتْلُو قوله - تعالىٰ!:﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ " إلا موصولًا بما بعده "[1]، فمع كونها أيةً مستقلة فإنه لا بد من ضميمة ما بعدها للتفسير والبيان؛ إذ إن أخذها وحدها مستقلة " يوهم أن العذاب لكلِّ مصلٍّ، وليس للمصلين الموصوفين بما ذُكِرَ بعده"[2] من السهوُ والرياء. فرغم فساد المعنىٰ بالوقف علىٰ [لِلْمُصَلِّينَ]، إلا أن النَّظْمَ الْقُرْآنِيَّ الْحَكِيمَ قد جاء بفاصلة قرآنية بين الموصوف [لِلْمُصَلِّينَ] والصفة [الَّذِينَ] التي هي مقيِّدة لحكم الموصوف؛ فإن الويل للمصلي الساهي عن صلاته، لا للمصلي علىٰ الإطلاق، وما جاء النَّظْمُ الْقُرْآنِيُّ الْحَكِيمُ بذلك إلا **قصدًا للتعادل في الإيقاع** بين الفواصل النونية المردوفة بالياء [بِالدِّينِ-الْمِسْكِينِ- لِلْمُصَلِّينَ] والفواصل

---

(١) الكشاف-ج٤/ ص٨٢.

(٢) تنبيه الغافلين وإرشاد الجاهلين- ص١٣٧.

النونية المردوفة بالواو [سَاهُونَ- يُرَآءُونَ-الْمَاعُونَ]؛ إذ لو جاءت في غير القرآن [فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ] دونما فصل بين الصفة والموصوف لَانْتَفَىٰ التعادلُ الإيقاعي، وَلَانْتَفَىٰ- كذلك- حسنُ التقسيم بين عدد كلمات كل آية من الآيات السبع البالغة خمسًا وعشرين كلمةً، كما يوضحه المخطط الآتي(١):

م	الآية الأولى	الآية الثانية	الآية الثالثة	الآية الرابعة	الآية الخامسة	الآية السادسة	الآية السابعة
كلمات الآيات	أَرَأَيْتَ	فَذَلِكَ	وَلَا	فَوَيْلٌ	الَّذِينَ	الَّذِينَ	وَيَمْنَعُونَ
	الَّذِي	الَّذِي	يَحُضُّ	لِلْمُصَلِّينَ	هُمْ	هُمْ	الْمَاعُونَ
	يُكَذِّبُ	يَدُعُّ	عَلَىٰ		عَنْ	يُرَآءُونَ	
	بِالدِّينِ	الْيَتِيمَ	طَعَامِ		صَلَاتِهِمْ		
			الْمِسْكِينِ		سَاهُونَ		
عدد الكلمات	٤	٤	٥	٢	٥	٣	٢
	٢٥ كلمة						
عدد الحروف	٢١	٢٠	٢١	١٣	٢١	١٤	١٤
مكي ومدني	٣ آيات مكية			٤ آيات مدنية			
	٦٢ حرفًا			٦٢ حرفًا			

يُلاحظ من المخطط الآتي:

١- توافق الآيات الأولىٰ والثالثة والخامسة في عدد الحروف [٢١ حرفًا]، ينضاف إليهم الآية الثانية البالغة [٢٠ حرفًا].

٢- توافق الآيتين السادسة والسابعة في عدد الحروف[١٤ حرفًا]، وهما آيتان متتاليتان؛ مما يشكل هذا التوافق والتتابع عنصرا إيقاعيا مع حسن تقسيم.

٣- أقل الآيات حروفا هي الآية الرابعة البالغة [١٣ حرفًا]، ولذلك دلالتُه علىٰ أن صلاتَهم صلاةٌ منقوصة.

(١) اِعْتَبَرَ المخططُ الأفعالَ المسندة إلىٰ الضمائر كلمة مفردة. ورُوعِيَ في عدِّ الحروفِ المنطوقُ وغيرُ المنطوقِ، وفكُّ المشدَّدِ.

آثر النَّظْمُ الْقُرْآنِيُّ الْحَكِيمُ الفاصلة [لِلْمُصَلِّينَ] رغم الخلل في المعنىٰ، الناجم عن الوقفِ علىٰ تلكم الفاصلة التي فَصَلتْ بين الصفة [الَّذِين] والموصوف [الْمُصَلِّينَ]؛ إذْ لا يمكن أن يُدْعَىٰ بالويل علىٰ كلِّ مُصَلٍّ بالإطلاق، بل علىٰ صنف ساهٍ لاهٍ عن إقامتها علىٰ وقتها؛ **وما ذلك إلا حرصًا من النَّظْمُ الْقُرْآنِيُّ الْحَكِيمُ على تحقيق الإيقاع الذي يَفوق مطلبُه مطلبَ المعنى أحيانًا، ويَعْدُو مطلبَ القاعدة في أحايين.** ينضاف إليه ملمح دلالي هو أن إطلاق الذم فيه تنبيهٌ للغافلين من المؤمنين الموحدين، ومن المنافقين المرائين، فالصلاة مواصلة بين العبيد وبين ربهم، واتصال من حيث لا يعلمه إلا الله، بشهود قلب، ورعاية حق المناجاة، وخشوع الجوارح، وهؤلاء المنافقون لم يرعوا حقها؛ فليس كل من كان واقفا مع العابدين كان مقبولا موصولا؛ فكانت المفاصلة التي دل عليها الفاصلة بين الوصف والموصوف. ومن فضل الله علىٰ عباده أن قال:(عَنْ صَلَاتِهِمْ)، ولم يقل: فِي صَلَاتِهِمْ؛ إذ ليس السهو الذي يطرأ علينا في صلاتنا ولا نقدر علىٰ دفعه عن نفوسنا هو الذي نُذمُّ به؛ لأنه عفو، وإنما السهو هو عدم أدائها في مواقيتها.

٤- جاءت الفاصلة في الآية الثانية بالميم المردوفة بالياء [الْيَتِيمَ]، مُخَالِفَةً بذلك سائرَ فواصل آيات السورة السبع رغم تقارب النون والميم في المخرج، وهو أمر جائز في الأوزان، بيد أن تفرَّدَها دلَّ دلالة بينة علىٰ معنًىٰ مروم، وهو كون هذا اليتيم قد أضحىٰ وحيدا مستضعفا من المجتمع بفقده أباه؛ ومن ثمَّ كان كافلُه جارًا للنبي – صلىٰ الله عليه وسلم!- في الجنة؛ كتَجَاوُرِ السَّبَّابة والوسطىٰ.

٥- ملمح آخر من حسن التقسيم، هو أن سورة الماعون " نصفها مكية، ونصفها مدنية؛ فالنصف الأول إلىٰ قوله:[فويل للمصلين] مكية. والنصف الباقي مدنية"[1]. فقد فصلت الآية:﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴾ بين ما هو مكي، وما هو مدني، وما من عجب أن عدد حروف آيات النصف الأول المكي متفقٌ تمامًا مع عدد حروف آيات النصف الثاني المدني، وهو العدد اثنان وستون.

❁❁❁❁❁

(١) تفسير السمعاني-ج٦/ ص٢٨٨.

النَّمُوذَجُ التَّاسِعُ: [الْوَادِ]

قال الله – تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ!: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِي ٱلْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣﴾ [سورة الفجر:٦-١٣]. **فكلمة [الواد] اسم منقوص محلًّىٰ بـ [ال]، قد حذفت الياء، رغم مخالفة القاعدة النحوية القاضية بعدم حذفها؛ وما ذلك إلا مراعاة لنسق الفاصلة الموسيقية وتناسُبِها المنبعث من الدالِ المقلقلة الموقوفِ عليها بالسكون.؛ فقد " حذفوا الياء من [يَسْرِي، وَالْوَادِي]؛ طلبًا للموافقة في الفواصل"(١).**

ومثل ذلك يُقال في تحليل قول اللهِ– تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ!: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [سورة الرعد:٩].**؛ حيث إن الفواصل من الآية السادسة إلىٰ الآية الثالثة والأربعين– وهي الأخيرة من السورة– حرف ساكن وقفا لا وصلا، مسبوق بألف، هي بمثابة الردف في القافية؛ فمن أجل الحفاظ علىٰ هذا الإيقاع تمَّ سلبُ القاعدة النحوية بحذف ياء الاسم الناقص المعرَّف بأل[الْمُتَعَالِ].**

وَالْحَمْدُ لِلهِ بَدْءًا، وَ مُخْتَتَمًا!

(١) سر الفصاحة– ص١٧٣.

الْخَاتِمَةُ

مِمَّا قَدْ سَلَفَ من تطواف حول جزئيات هذا البحث الذي ما قمت به إلا وفاء بحق النَّظْمِ الْقُرْآنِي الْحَكِيمِ، ووفاء بمدلوله الذي يقتضيه ظاهره، يُمْكِنُنَا الوُصُولُ إِلَىٰ مَا هُوَ آتٍ:

أَوَّلًا: الْإِيقَاعُ شَيءٌ فِطْرِيٌّ لَدَىٰ الْكَائِنَاتِ كُلِّهَا، وَلَهُ وَظِيفَةٌ إِيحَائِيَّةٌ مُهِمَّةٌ فِي نَقْلِ أَحَاسِيسِ مُبْدِعِ النَّصِّ.

ثَانِيًا: حِرْصُ النَّظْمِ الْقُرْآنِيِّ الْحَكِيمِ عَلَىٰ إِقَامَةِ اللَّازِمَةِ الْمُوسِيقِيَّةِ بِسَلْبِ الْقَاعِدَةِ النَّحْوِيَّةِ هُوَ جَانِبٌ مُهِمٌّ مِنْ جَوَانِبِ إِعْجَازِهِ الَّذِي يُغَايِرُ إِعْجَازَ جُمَلِهِ وَتَرَاكِيبِهِ وَفصَاحَةِ أَلْفَاظِهِ.

ثَالِثًا: إِقَامَةُ الْإِيقَاعِ مَطْلَبٌ مُهِمٌّ جِدًّا مِنْ مَطَالِبِ النَّظْمِ الْقُرْآنِي الْحَكِيمِ؛ مِنْ أَجْلِ تَمْكِينِ الْمَعْنَىٰ، وَتَحْسِينِ الْمَبْنَىٰ، وَتَقْوِيَةِ الدَّلَالَةِ، وَتَغْذِيَةِ الْوِجْدَانِ.

رَابِعًا: لِلنَّظْمِ الْقُرْآنِيِّ الْحَكِيمِ طَرَائِقُ مُتَعَدِّدَةٌ مِنْ أَجْلِ إِقَامَةِ الْإِيقَاعِ، مِنْهَا سَلْبُ الْقَاعِدَةِ النَّحْوِيَّةِ؛ بِحَذْفِ الْيَاءِ مِنَ الِاسْمِ الْمَنْقُوصِ الْمُعَرَّفِ بِأَلْ، كَمَا فِي [**الْوَادِ- الْمُتَعَالِ**]، وَبِتَذْكِيرِ الْمُؤَنَّثِ، كَمَا فِي [**حَسِيبًا**]، وَبِجَمْعِ مَا هُوَ مُفْرَدٌ، كَمَا فِي [**إِلْيَاسِينَ**]، وَبِالْإِتْيَانِ بِلُغَةٍ أُخْرَىٰ لِلْكَلِمَةِ، كَمَا فِي [**سِينِينَ**].

خَامِسًا: تَرْكُ الْوَقْفِ عَلَىٰ الْفَوَاصِلِ إِخْلَالٌ بِحَقِّ الْمَقْرُوءِ مِنَ الْجَانِبِ الْإِيقَاعِيِّ.

ثَبَتُ الْمَصَادِرِ والْمَرَاجِعِ

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً: المصادر والمراجع:

١- **أحكام القرآن**، أحمد بن علي الرازي الجصاص أبو بكر [ت٣٧٠هـ]- دار إحياء التراث العربي- بيروت- ١٤٠٥هـ- تح/ محمد الصادق قمحاوي.

٢- **أحكام القرآن**، أبو بكر محمد بن عبد الله ابن العربي [ت ٥٤٣هـ]- دار الفكر للطباعة والنشر- لبنان- تحق/ محمد عبد القادر عطا.

٣- **الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار**، لابن عبد البر القرطبي [ت٤٦٣هـ]-دار الكتب العلمية - بيروت - ٢٠٠٠م- ط١- تح: سالم محمد عطا-محمد علي معوض.

٤- **إعراب القرآن**، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس[ت ٣٣٨هـ]- عالم الكتب- بيروت- ١٤٠٩هـ- ١٩٨٨م- ط٣- تح/ د. زهير غازي زاهد.

٥- **البحر المحيط في أصول الفقه**، الزركشي [ت٧٩٤هـ]- دار الكتب العلمية- لبنان/ بيروت - ١٤٢١هـ = ٢٠٠٠م- ط١- تح/ د. محمد محمد تامر.

٦- **بريقة محمودية**، أبو سعيد محمد بن محمد الخادمي [ت١١٥٦هـ]- مطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي وأولاده- مصر- ١٣٤٨هـ- ط١- تح/ محمد أمين عمران.

٧- **التحرير والتنوير**، محمد الطاهر ابن عاشور[ت١٢٨٤هـ)- دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس- ١٩٩٧م.

٨- **تفسير البحر المحيط**، لأبي حيان الأندلسي [ت ٧٤٥هـ]- دار الكتب العلمية- لبنان/ بيروت- ١٤٢٢هـ -٢٠٠١م- ط١- تح/ الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، شارك في التحقيق/ د. زكريا عبد المجيد النوقي، د. أحمد النجولي الجمل.

٩- **تفسير القرآن العظيم**، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء- دار الفكر- بيروت- ١٤٠١هـ.

١٠- **تفسير القرآن**، للسمعاني [ت٤٨٩هـ]- دار الوطن- الرياض- السعودية - ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م- ط١- تح/ ياسر بن إبراهيم، وغنيم بن عباس بن غنيم.

١١- **تفسير القرآن**، عبد الرزاق بن همام الصنعاني- مكتبة الرشد - الرياض- ١٤١٠هـ- ط١- تح/ د. مصطفىٰ مسلم محمد.

١٢- **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب**، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي [ت٦٠٤ هـ]- دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م- ط١.

١٣- **تفسير المنار**، محمد رشيد بن علي رضا [ت١٣٥٤هـ]- الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة - ١٩٩٠م.

١٤- **تفسير روح البيان**، أبو محمد بدر الدين الْمُرَادِيّ المصري المالكي [ت٧٩٤هـ]- دار الفكر العربي- ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٨م- ط١- تح/ عبد الرحمن علي سليمان.

١٥- **تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان**، القمي النيسابوري [ت٧٢٨ هـ]- دار الكتب العلمية - بيروت/ لبنان- ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م- ط١- تحق/ الشيخ زكريا عميران.

١٦- **تفسير مقاتل بن سليمان الأزدي البلخي[ت١٥٠هـ]**- دار الكتب العلمية - لبنان/ بيروت - ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م- الطبعة الأولىٰ- تح/ أحمد فريد.

١٧- **تنبيه الغافلين وإرشاد الجاهلين عما يقع لهم من الخطأ حال تلاوتهم لكتاب الله المبين**، علي بن محمد بن سالم، أبو الحسن النوري [ت١١١٨هـ]- المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية- تونس- ١٩٧٤م- ط١- تح/ محمد الشاذلي النيفر.

١٨- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري أبو جعفر- دار الفكر- بيروت – ١٤٠٥هـ.

١٩- **الجامع الصحيح المختصر**، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري [ت٢٥٦هـ]- دار ابن كثير- اليمامة - بيروت – ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م- ط٣- تح/ د. مصطفىٰ ديب البغا.

٢٠- **الجامع الصحيح سنن الترمذي**، محمد بن عيسىٰ أبو عيسىٰ الترمذي السلمي[ت٢٧٩هـ]- دار إحياء التراث العربي- بيروت- تح/ أحمد محمد شاكر وآخرون.

٢١- **الجامع لأحكام القرآن**، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي [ت٦٧١هـ]- دار الشعب – القاهرة.

٢٢- **الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي، الماوردي [ت٤٥٠هـ]**- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- ١٤١٩ هـ-١٩٩٩م-ط١-تح/ الشيخ علي محمد معوض.

٢٣- **حجة القراءات، عبد الرحمن بن محمد، أبو زرعة ابن زنجلة [ت٤٠٣هـ]**- دار الرسالة- تحقيق وتعليق علىٰ حواشيه/ سعيد الأفغاني.

٢٤- **الحجة في القراءات السبع**، الحسين بن أحمد بن خالويه، أبو عبد الله- دار الشروق- بيروت- ط٤- ١٤٠١ه- تح/ د. عبد العال سالم مكرم.

٢٥- **حديث علي بن حجر السعدي إسماعيل بن جعفر المدني، أبو إسحاق إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير الأنصاري الزرقي المدني [ت١٨٠هـ]**- مكتبة الرشد- شركة الرياض للنشر والتوزيع- الرياض- ١٤١٨-١٩٩٨م- ط١- تح/ عمر بن رفود بن رفيد السفياني.

٢٦- **خِزَانَةُ الْأَدَبِ ولب لباب لسان العرب**، عبد القادر بن عمر البغدادي [ت١٠٩٣هـ]- دار الكتب العلمية- بيروت- ١٩٩٨م- ط١- تح/ محمد نبيل طريفي/ إميل بديع يعقوب.

٢٧- **الخصائص**، لابن جني- بيروت- الطبعة الثانية- تح/ محمد علي النجار.

٢٨- **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون** ،أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي- دار القلم- دمشق – ١٤٠٦هـ- ط١- تح/ د. أحمد محمد الخراط .

٢٩- **الرسالة القشيرية**، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري[ت٤٦٥هـ]- دار الكتب العلمية - بيروت/ لبنان- ١٤٢٢هـ= ٢٠٠١م- تح/ خليل المنصور.

٣٠- **الرقة والبكاء**، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا[ت٢٨١هـ]- دار ابن حزم - بيروت – ١٤١٩هـ-١٩٩٨م- ط٣- تح/ محمد خير رمضان يوسف.

٣١- **زاد المعاد في هدي خير العباد** ، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله [ت٧٥١هـ]- مؤسسة الرسالة - مكتبة المنار الإسلامية - بيروت - الكويت – ١٤٠٧ه= ١٩٨٦م- ط١٤- تح/ شعيب الأرناؤوط - عبد القادر الأرناؤوط.

٣٢- **الزهد ويليه الرقائق**، عبد الله بن المبارك بن واضح المرزوي أبو عبد الله [ت١٨١هـ]- دار الكتب العلمية- بيروت- تح/ حبيب الرحمن الأعظمي.

٣٣- **سر الفصاحة**، الأمير أبي محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي [ت٤٦٦هـ]- دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤٠٢هـ =١٩٨٢م- ط١.

٣٤- **سر صناعة الإعراب**، أبو الفتح عثمان ابن جني [ت٣٩٢هـ]- دار القلم - دمشق - ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م- ط١- تح/ د. حسن هنداوي.

٣٥- **شرح كتاب سِيبَوَيْهِ**، أبو سعيد السيرافي- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- ط١- ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨ه- تح/ أحمد حسن مهدلي.

٣٦- **شرح مشكل الآثار**، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي[ت٣٢١هـ]- مؤسسة الرسالة- لبنان/ بيروت- ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م- ط١- تح/ شعيب الأرناؤوط.

٣٧- **الصاحبي في فقه اللغة**، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب القزويني [ت٣٩٥هـ]- مطبعة المؤيد- القاهرة- ١٣٢٨ه-١٩١٠م- ط١- تح/ المكتبة السلفية.

٣٨- **صحيح مسلم بشرح النووي**، أبو زكريا يحيىٰ بن شرف بن مري النووي [ت٦٧٥هـ]- دار إحياء التراث العربي- بيروت - ١٣٩٢هـ- ط٢.

٣٩- **العقد الفريد**، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي [ت٣٢٨هـ]- دار إحياء التراث العربي- بيروت- لبنان-١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م- ط٣.

٤٠- **العقوبات الإلهية للأفراد والجماعات والأمم**، لابن أبي الدنيا [ت٢٨١هـ]- دار ابن حزم- بيروت- ١٤١٦=١٩٩٦م- ط١- تح/ محمد خير رمضان يوسف.

٤١- **العلل المتناهية في الأحاديث الواهية**، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي [ت٥٩٧هـ]- دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤٠٣هـ- ط١- تح/ خليل الميس.

٤٢- **العمدة في محاسن الشعر وآدابه**، أبو علىٰ الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي [ت٤٦٣هـ]- دار الجيل - بيروت- ١٤٠١=١٩٨١م- ط٥- تح/ محمد محي الدين عبد الحميد.

٤٣- **غريب الحديث**، أحمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي أبو سليمان [ت٣٨٨هـ]- جامعة أم القرىٰ - مكة المكرمة - ١٤٠٢ه- تح/ عبد الكريم إبراهيم العزباوي.

٤٤- **غريب القرآن**، أبو بكر محمد بن عزيز السجستاني [ت٣٣٠هـ]- دار قتيبة-١٤١٦هـ- ١٩٩٥م- تح/ محمد أديب عبد الواحد جمران.

٤٥- **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، محمد بن علي بن محمد الشوكاني [ت١٢٥٠هـ]- دار الفكر- بيروت.

٤٦- **فضائل القرآن**، أبو عُبيد القاسم بن سلاّم الهروي البغدادي- دار ابن كثير- دمشق-تح/ مروان العطية، ومحسن خرابة، وفاء تقي الدين.

٤٧- **فيض القدير شرح الجامع الصغير**، عبد الرؤوف المناوي [ت١٠٣١هـ]-المكتبة التجارية الكبرىٰ - مصر- ١٣٥٦هـ- ط١.

٤٨- **القافية تاج الإيقاع الشعري** ، لأستاذنا الدكتور/ أحمد كشك- دار غريب - ٢٠٠٤م.

٤٩- **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي- دار إحياء التراث العربي - بيروت- تح/ عبد الرزاق المهدي.

٥٠- **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**، الثعلبي[ت٤٢٧هـ]- تح/ الإمام أبي محمد بن عاشور- دار إحياء التراث العربي- بيروت - لبنان- الأولىٰ- ١٤٢٢هـ = ٢٠٠٢م.

٥١- **الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**، الكفوي[ت١٠٩٤هـ]- تح/ عدنان درويش، محمد المصري- مؤسسة الرسالة- بيروت.

٥٢- **اللباب في علوم الكتاب**، لابن عادل الحنبلي [ت٨٨٠هـ]- تح/ الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض- دار الكتب العلمية- بيروت- ط١-١٤١٩=١٩٩٨م.

٥٣- **المحكم والمحيط الأعظم**، لابن سيده المرسي [ت ٤٥٨هـ]- دار الكتب العلمية - بيروت - ٢٠٠٠م- ط١- تح/ عبد الحميد هنداوي.

٥٤- **مختصر تاريخ دمشق**، لابن منظور المصري [ت٧١١هـ]- دار الفكر- دمشق- ط١- تح/ روحية النحاس، رياض عبد الحميد مراد، محمد مطيع الحافظ وآخرون.

٥٥- **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، محمد بن أبي بكر الزرعي[ت٧٥١هـ]- دار الكتاب العربي- بيروت- ١٣٩٣هـ= ١٩٧٣م- ط٢- تح/ محمد حامد الفقي.

٥٦- **مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح**، علي بن سلطان محمد القاري[ت١٠١٤هـ]، دار الكتب العلمية- لبنان/ بيروت- ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م- ط١- تح/ جمال عيتاني.

٥٧- **المستطرف في كل فن مستظرف**، شهاب الدين الأبشيهي [ت٨٥٠هـ]- دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م- الطبعة الثانية- تح/ مفيد محمد قميحة.

٥٨- **مشكل إعراب القرآن**، مكي بن أبي طالب القيسي[ت٤٣٧هـ]- مؤسسة الرسالة- بيروت – ١٤٠٥هـ- ط٢-، تح/ د. حاتم الضامن.

٥٩- المصنف، أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني [ت٢١١هـ] المكتب الإسلامي - بيروت – ١٤٠٣ه- ط٢- تح/ حبيب الرحمن الأعظمي.

٦٠- **معاني القرآن الكريم**، النحاس [ت ٣٣٨هـ]- جامعة أم القرىٰ- مكة المكرمة – ١٤٠٩هـ- الطبعة الأولىٰ- تح/ محمد علي الصابوني.

٦١- **المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني**، عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي أبو محمد [ت٦٢٠هـ]- دار الفكر- بيروت- ١٤٠٥هـ- ط١.

٦٢- **المقتضب**، محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي أبو العباس، المعروف بالمبرد [ت٢٨٥هـ]- تح/ محمد عبد الخالق عظيمة-عالم الكتب- بيروت.

٦٣- **مناهل العرفان في علوم القرآن**، محمد عبد العظيم الزرقاني- دار الفكر - لبنان - ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م- ط١.

٦٤- **المهذب في فقه الإمام الشافعي**، إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي أبو إسحاق [ت٤٧٦هـ]- دار الفكر – بيروت.

٦٥- **موطأ الإمام مالك**، مالك بن أنس أبو عبدالله الأصبحي [ت١٧٩هـ]- دار إحياء التراث العربي- مصر- تح/ محمد فؤاد عبد الباقي.

٦٦- **نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر**، لابن الجوزي [ت٥٩٧هـ]- مؤسسة الرسالة - لبنان/ بيروت - ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م- ط١- تح/ محمد عبد الكريم كاظم الراضي.

٦٧- **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، البقاعي [ت٨٥٥هـ]- دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤١٥هـ= ١٩٩٥م- تح/ عبد الرزاق غالب المهدي .

٦٨- **النكت والعيون (تفسير الماوردي)**، الماوردي [ت ٤٥٠هـ]- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- تح/ السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم.

٦٩- **نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار**، محمد بن علي بن محمد الشوكاني [ت١٢٥٠هـ]- دار الجيل- بيروت- ١٩٧٣م.

٧٠- **الهداية إلى بلوغ النهاية**، مكي بن أبي طالب [ت٤٣٧هـ]- كلية الشريعة والدراسات الإسلامية- جامعة الشارقة- الشارقة- الإمارات العربية- ١٤٢٩ هـ- ٢٠٠٨ م- ط١- تحقيق وإشراف/ أ.د: الشاهد البوشيخي.

٧١- **الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، علي بن أحمد أبو الحسن الواحدي [ت ٤٦٨هـ]- دار القلم- الدار الشامية - دمشق ، بيروت - ١٤١٥هـ- ط١- تح/ صفوان عدنان داوودي.